من القبطية إلى الإسلام

قصة فتح مصر



قصة فتح مصر
من القبطية إلى الاسلام

قصــــة فـــتح مصـــر
مـــن القبطية إلى الاسلام

رؤية معاصرة

بقلم :
حامد سليمان

المقدمة

لم يكن فى نيتى تأليفُ هذا الكتاب . .

ولكنْ خلال محاولة لقراءة بعض التفاصيل ـ التى تجتاز ما درسناه فى الكتب المدرسية عن فتح مصر ـ لاحظت أن هناك حقائق وجوانب متعددة مجهولة تماما للقارىء المصرى والعربى ، كما لاحظت أيضا ندرة الكتب المعاصرة التى تعرضت لهذا الحدث الهام . . وحتى هذه الكتب التى كانت تتعرض لعملية الفتح . . كانت تتناولها ـ جزئيا ـ من الزاوية العسكرية أو السياسية أو الدينية . . التى تخدم هدف الكاتب أصلا . .

وفى الوقت ذاته . .

فقد وجدت هناك ـ فى مجال الفتوحات ـ كتبا معاصرة تتكلم بإسهاب عن فتح الأندلس . . أو فتح فارس . . أو معركة القادسية أو اليرموك . . رغم ندرة الكتب التى تعرضت بالدراسة لفتح مصر أو لموقعة بابليون أو فتح الإسكندرية . .

ومن هنا كانت الوسيلة « الوحيدة » لمعرفة أو دراسة أى شىء يتعلق بهذا الموضوع ـ اللجوء إلى المراجع والمخطوطات القديمة . . وحتى هذه المراجع القديمة ـ وخاصة تلك التى تتناول الموضوع بشكل مباشر ـ كانت إمَّا قليلة أو نادرة مثل كتاب « فتح مصر وأخبارها » لأبى القاسم بن عبد الحكم . . و « تاريخ الكنيسة القبطية » . . و « خطط المقريزى » . .

والمفارقة . . أن تحدث هذه الندرة فى تناول هذا الحدث الهام فى مصر . . رغم أن التأثير الحضارى الذى أعقب فتح مصر . . قد ـ فاق بمراحل ـ ذلك التأثير الذى أحدثه فى كل من الأندلس وفارس . .

ففى الوقت الذى لم يتبق فيه من الفتح العربى للأندلس سوى أطلال وآثار . . وذكريات . . وكلمات متناثرة من بقايا اللغة العربية . . وفى الوقت الذى انحصر فيه التأثير فى فارس عند الدين . . ولم يمتد إلى اللغة . . نرى أن الفتح الإسلامى لمصر . . كان انقلابا حضاريا جذريا وشاملا . . استطاع أن يغير من تاريخ شعب وحضارة أمة ، فامتد هذا التأثير إلى الدين واللغة والعادات والتقاليد . . بل استطاع هذا التأثير أن يربط مصير الشعب المصرى بمصير وتاريخ الأمة العربية والإسلامية منذ عام ٦٤١ م ـ عام فتح مصر وإلى الآن . .

ولهذا . . كان من الغريب . . ألا يكون هناك كتاب فى متناول اليد عن قصة الفتح الإسلامى لمصر ، يروى تفاصيل هذه القصة . . كيف كانت أحوال مصر قبل الفتح ؟ . وكيف كان يعيش ملايين المسيحيين من أقباط مصر . . فى صراع دائم مع الرومان حفاظًا على نقاء مسيحيتهم فى مواجهة وثنية

وهرطقة الغزاة الرومان ؟ . . وكيف تمت بعد ذلك عملية (أسلمة) أجدادنا ؟ . . وكيف دخل ملايين الأقباط في دين الله أفواجا عن طواعية ودون إكراه ؟ . . وباختصار . . كيف تمت أكبر عملية تحول حضارى فى مصر بعد الفتح العربى الإسلامى . . على يد هذه الحفنة المؤمنة التى حملت شعلة الإسلام . . من أرض الجزيرة العربية إلى مصر .

ولعله من الانصاف أن أذكر . . أن ترددى فى تأليف هذا الكتاب قد زال تماما . . بعد أن ألح على اثنان من أعز أصدقائى الأقباط بضرورة تأليف هذا الكتاب . . وهما الاستاذ / فهمى ناشد عضو مجلس الشورى . . والاستاذ / سامى حكيم الكاتب اللامع فى أخبار اليوم .

دفعتنى كل هذه العوامل أن أنوب عن قراء مصر . . فى البحث عن المراجع . . وكتب التراث القديمة . . وتلخيص هذه القصة فى كتيب معاصر . . يكون فى متناول يد وفهم الجميع . . وأن يكون هذا العمل محاولة ثقافية ، تتبعها محاولات أخرى ، حتى يتناسب حجم الكتب (المعاصرة) التى تتناول هذا الحدث ، الهام . . مع حجم ذلك التأثير الحضارى الكبير . . الذى أحدثه الفتح العربى لمصر . . فى حياة شعب مصر . .

حامد سليمان

الفصل الأول

المصريون قبل الفتح



كانت مصر محكومة ـ قبيل الفتح ـ من قبل الإمبراطورية الرومانية .. بعد أن أنهى الإمبراطور الرومانى « أوكتافيوس » حكم كليوباتره ، بعد أن استطاعت أن تستقل بمصر استقلالا صوريا عن الإمبراطورية اليونانية .. التى كان قد أصابها الضعف على يد أباطرتها الإغريق .. الذين حكموا مصر من عام (٣٣٢ ق.م.) إلى (٤٤ ق.م.) ..

فى عهد الإغريق .. ورغم تسامحهم الدينى وعدم فرض دياناتهم على غيرهم من سكان مصر .. فإن نظرتهم الطبقية للسكان التى استقت جذورها من الفلسفات الأفلاطونية والأرسطية القديمة ـ وضعت المصريين فى أدنى هذه الطبقات بعد اليهود والفرس الذين كانوا يشكلون أقلية عددية بعد الإغريق فى مصر ..

وحتى الأغلبية المصرية أيام الاغريق كانت مقسمة لطبقات .. طبقة الأرستقراطيين الدنيين من الأثرياء وأصحاب الأراضى .. وطبقة الأرستقراطيين الدنيويين من كهنة المعابد .. ثم طبقة المحاربين و .. طبقة الموظفين من الكتبة والمحاسبين وجباة الضرائب .. ثم يأتى فى مؤخرة هذه الطبقات جميعا .. ملايين المصريين ، وكان أغلبهم يشتغل بالزراعة ، وبعضهم بالصناعة .. وكانوا كالعادة عماد الحياة الاقتصادية .. حيث كان الهدف الرئيسى للحكم الإغريقى بالطبع .. جعل الدولة ، أو بمعنى أدق الملك الإغريقى ، غنيا .. وكان يتعين توجيه كل جهود الأهالى لتحقيق هذا الهدف ..

ولأن هذا الهدف .. كان كل ما يشغل نظام الحكم الإغريقى فى مصر .. فلم تنج طبقة من طبقات المصريين من الاضطهاد والإشعار بالعبودية .. وبأنهم مجرد وسائل إنتاج فى نظام اقتصادى بغيض ، يعمل من أجل ملك أجنبى .. وسعادة حوارييه من الإغريق .. ومحاسبيه من اليهود والفرس ..

وقد عبر المصريون عن نقمتهم من ذلك النظام الاقتصادى البغيض ، منذ عهد بطليموس الثانى .. وتحدثنا الوثائق عن تكرار وقوع اضطرابات بين المزارعين ، كانت تنتهى بإضرابهم عن العمل وفرارهم الى المعابد للاحتماء بالآلهة .. وقد أخذت هذه الاضطرابات تزداد عنفا على مضى الزمن ، فوقعت فى عهد بطليموس الثالث أول ثورة شعبية .. تكررت بعد ذلك الى ثورات أشد عنفا .. كان أخطرها ما حدث فى الدلتا عام ٢١٦ ق.م ، ولم يأت عام ٢٠٦ ق.م ، حتى كانت الثورة قد اشتدت واشتد لهيبها فى مصر الوسطى ومصر العليا .

وظلت هذه الثورات مستمرة حتى (عام ٨٥ ق.م.) فى عهد بطليموس التاسع .. أما آخر الثورات ضد الإغريق .. فقد انطلقت من طيبة .. بعد أن تفاقمت الأحوال

فى المدينة ، إلى حد أن بطليموس التاسع رأى أن الطريقة المثلى لقطع دابر الثورة هى القضاء على طيبة ذاتها ، حيث كانت ـ منذ أيام أحمس ـ مهد الثورات ، ومعقل الثائرين المصريين الأصلاء ، ولذلك ، فبعد حرب استمرت ثلاث سنوات استولى على طيبة وخربها تخريبا شديدا ..

وإذا كان المصريون قد فشلوا فى التخلص من طغاتهم الإغريق .. فإن ذلك كان بسبب افتقادهم إلى ما امتازت به عليهم قوات البطالمة من النظام والأسلحة والعتاد والأموال ..

ورغم ذلك .. فقد كانت لهذه الثورات إيجابياتها التى تجسدت فى إرغام الإغريق على النزول عن صلفهم وجبروتهم .. والنظر إليهم بعين جديدة من الهيبة فى الشطر الثانى من حكمهم .

وإلى جانب ذلك فإن الثورات القومية كانت من أهم الأسباب التى أضعفت دولة الإغريق ، وعجلت بالقضاء على الحكم البطلمى فى مصر(١) ..

عهد الرومان : وعندما فتح أوغسطس مصر أثبت فى السجلات الرسمية العبارة التالية :

« ضمت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى » ..

ويرى كثير من الباحثين أن معنى ذلك واضح لا لبس فيه ولا غموض ، وهو أن أوغسطس ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية وأصبحت إحدى (ولاياتها) ، تستغل روما مواردها مثل موارد غيرها من الولايات الرومانية لصالح الشعب الرومانى .. وبغض النظر عما تجلبه هذه السياسة من خراب على مصر .. وتعاسة للمصريين . ويرى البعض الآخر من الباحثين أن مصر لم تكن ولاية بالمعنى المعروف ، وإنما كانت ملكا خاصا للإمبراطور وترتبط بشخصه وتخضع لسلطانه الخاص .. والواقع أن مصر لم تكن ملكا خاصا للإمبراطور ، كما أنها لم تكن ولاية عادية . فقد أدخل أوغسطس فى تقديره ـ كما دلت الوثائق التاريخية ـ عدة اعتبارات عندما وضع يده على مصر بالذات .. **أولاً :** أن مصر (بلاد غنية) آهلة بالسكان تتمتع بمركز استراتيجى من اليسير الدفاع عنه . **ثانياً :** أن موارد هذه البلاد طائلة وتستطيع أن تسد حاجة الشعب الرومانى من الحبوب ، وأن تملأ خزائن روما بالأموال بعد أن استنزفتها تكاليف الحروب الأهلية . **ثالثاً :** أن هذه البلاد فى حاجة إلى حكومة قوية لنشر الأمن فى أرجائها والنهوض بمرافقها الاقتصادية بعد

---

(١) قصة الحضارة المصرية ص ٨١ .

تدهورها ، من جراء ضعف البطالمة الأواخر ، وما عانته من الثورات القومية والغزوات الأجنبية والانقسامات بين أفراد أسرة البطالمة (الإغريق) . **رابعاً** : أنه يجب اتخاذ الحيطة دون وقوع هذه البلاد فى قبضة شخصية تستطيع الاستقلال بها وحرمان روما من مواردها الطائلة .. بل تهديد كيان روما ذاتها على نحو ما حدث فى عهد كليوباتره[1] ، ونهاية عهد الإغريق .

وإزاء هذه السياسة الإمبراطورية الذكية .. وصل عدد سكان مصر إلى حوالى ٨ ملايين نسمة .. وقد أصبحت الإسكندرية فى هذا العهد أكبر مركز تجارى فى شرق البحر الأبيض ، وأكبر مركز صناعى فى مصر ، وثانى مدن الإمبراطورية الرومانية .

وتذكر صفحات التاريخ الرومانى أن نشاط الإسكندرية الصناعى وثراءها ومباهج الحياة فيها وشظف الحياة وبؤسها فى الريف المصرى ، دفع كثيراً من أهل الريف إلى الهجرة إليها ، منذ بداية القرن الثانى الميلادى ، مما حدا بالإمبراطور «كراكلا» إلى إصدار قرار فى عام ٢١٥م بإبعاد القرويين المصريين عن المدينة !! وقصر الحياة فيها على الطبقة الحاكمة الرومانية .. وطبقة الإغريق .. واليهود .. والأجانب وقلة من أثرياء المصريين .. ولم يكن مسموحاً لأى مصرى بدخول عاصمة (بلاده) .. إلا بإذن خاص .. ومن خلال إجراءات وتحريات صعبة .. من الأجهزة الحاكمة !!

طبقات السكان فى مصر أيام الرومان :

ذلك أن الرومان قد درجوا منذ عهد أوغسطس على تقسيم سكان مصر طبقات متباينة فى المرتبة الاقتصادية والاجتماعية ..

أولاً ـ الرومان :

وكانوا الطبقة العليا فى البلاد .. ورغم قلتهم .. فإن مستواهم ومراكزهم كانت تضعهم على رأس كل الطبقات التى سنذكرها .. فقد كانت هذه القلة تشمل كبار الحكام وبعض رجال الأعمال ، وكذلك قدماء المحاربين الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية عند تسريحهم ورغبوا فى الاستقرار فى مصر .. وقبل ادماجهم فى هذه الطبقة كان يتعين فحص حالة كل منهم ، لكى يتمتعوا هم وأولادهم بالحقوق والامتيازات ، التى كان أفراد هذه الطبقة يتمتعون بها فى عهد البطالمة

---

(١) نفس المرجع السابق .

(الإغريق) .. ولم يكن أفراد هذه الطبقة - طبقا لهذه الامتيازات - خاضعين لسلطة القواد فى المديريات وإنما لسلطة حكام الأقسام (من الرومان) .. والحاكم الرومانى فقط .

ومما يجدر بالذكر أن غالبية « المواطنين الرومان » الذين تتحدث عنهم الوثائق فى القرن الثالث كانوا من الإغريق والشرقيين وقلة من المصريين الذين (حظوا) باكتساب حقوق المواطنة الرومانية .. لأن المواطنة المصرية - حتى على أرض مصر - لم تكن لها قيمة على الإطلاق .. ومن هنا تبدو لنا جذور ذلك الشعور الذى يسيطر على المصرى - ربما حتى الآن - أنه « غريب فى وطنه » ، وكذلك تفسير ذلك الاحترام الكبير الذى يبديه معظم المصريين نحو كل ما هو أجنبى .

ثانياً - الإغريق :

أما الإغريق - بقايا العهد البطلمى الذين تأقلموا وبقوا فى مصر - فقد كانوا يتألفون من فريقين رئيسيين ، يعيش أحدهما فى المدن الإغريقية - التى أنشأها الإغريق خلال عهدهم - ويعيش الآخر فى المدن والقرى المصرية .. وكان كل من هذين الفريقين يتألف من فئتين رئيسيتين ، فالفريق الأول كان يتألف من فئة مواطنى المدن الإغريقية ، وفئة عامة الإغريق فى هذه المدن ..

أما الفئة الثانية فكانت أوفر حظا من الثراء والثقافة ، وكانوا يكونون جاليات منظمة تنظيما دقيقا ، دأبوا على أن يصنعوا - من خلال جالياتهم - من أسباب الكفاية والرفاهية ما يعوضهم عن الحياة فى المدن الإغريقية ..

ولما كان أعضاء الجاليات الإغريقية قد أصبحوا - فى العهد الرومانى - يؤلفون طبقة تتمتع بامتيازات معينة ، وكان التسجيل فى أى طبقة من الطبقات الممتازة يقتضى فحص حالة الراغبين فى ذلك وإثبات انتماء الأبوين إلى تلك الطبقة ، فإنه يتبين من ذلك أنه لم يعد ميسورا اندماج غرباء (متأغرقين) فى عداد الجاليات الإغريقية .. حتى لو كانوا من أهل البلاد .. بل على الأخص إذا كانوا من أهل البلاد المصريين .

والغريب أن الرومان أنفسهم كانوا يشجعون هذا الوضع وعلى حساب أهل البلاد المصريين .

فقد سمحوا للإغريق بهذا التميز الطبقى .. بل أتاحوا للإغريق توفير لون من الحياة يوائم ما كانوا يستمتعون به فى المدن الإغريقية ، سواء فى بلادهم أو فى مصر ، أو بلاد آسيا الصغرى وسوريا .. فعمل الرومان على لم شمل الإغريق فى

جاليات خاصة بهم .. وتركيز تجمعاتهم فى عواصم المديريات .. وكانوا يختارون منهم حكاما لهذه المديريات فى حالة عدم وجود حاكم رومانى .. وهكذا كان الرومان يفرقون بين الإغريق بشكل عام ، ومعظمهم كانوا من بين الاقطاعيين وقدامى المحاربين و .. بين المصريين باعتبارهم أهالى البلاد الذين خضعوا للفتح الرومانى دون قيد أو شرط .. فوضعوهم فى أسفل درك ، وفرضوا عليهم كافة الالتزامات ، وخاصة ضريبة الرأس التى كانت تعتبر رمزًا لخضوعهم واستسلامهم .. بينما كانت هذه الضريبة يعفى منها أغلب الإغريقيين .. وخاصة هؤلاء المنتظمين فى جاليات إغريقية فى عواصم المدن .

وقد أكد باحثون ، أخذوا معلوماتهم من الوثائق البردية ، أن الحكومة الرومانية التى كانت تعتبر جميع سكان مصر (مصريين) أى أجانب .. لأنهم لم يتمتعوا بحق (المواطنة الرومانية) .. باستثناء المواطنين الرومانيين ومواطنى الإسكندرية والمواطنين الإغريق المنضمين للجاليات الإغريقية .. الذين كانوا يؤدون من ضريبة الرأس ..

وكان الزواج ممنوعًا بين طبقات هذه الجاليات الإغريقية والمصريين .. أما عامة الإغريق .. الذين اندمجوا مع المصريين فى عواصم المديريات ، فكان مسموحًا لهم بالتزاوج .. أما الرومان .. فكانت طبقة (الدماء الزرقاء) محرمًا عليهم تماما الزاوج بالمصريين ..

وينهض هذا دليلا على مدى إجلال الرومان فى مصر للإغريق وحضارتهم .. دون المصريين وحضارتهم العريقة لدرجة أنهم استبقوا اللغة الإغريقية لغة رسمية للبلاد .. ولم يستخدموا لغتهم « اللاتينية » إلا في الجيش أو فى اللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى .. فضلا عن احتفاظ الرومان للأغريق بالمناصب الكبرى التى تلى المناصب الرئيسية التى احتفظوا بها لأنفسهم .. أما المصريون فكان عليهم أن يعيشوا .. ويعملوا .. ويدفعوا الضرائب فقط .

ثالثاً - اليهود :

كان اليهود ينتشرون فى مصر منذ عهد البطالمة الإغريق .. أكثرهم كان يعيش فى الإسكندرية .. والأقلية كانت تعيش فى ريف مصر .. كان البطالمة يمنحون الجالية اليهودية فى الإسكندرية قسطا من الحكم الذاتى .. ولكن لم يمنحوهم حقوق المواطنة الإغريقية .

وقد ازدهرت حياة اليهود أيام الإغريق .. حتى بلغ تعدادهم حوالى مليون فى أوائل

الفتح الرومانى ، كان خمسهم يعيشون فى الإسكندرية .. وقد أقر الرومان الامتيازات الممنوحة لليهود منذ العهد الإغريقى ..

وكان يهود الإسكندرية يتكونون من أصحاب رءوس الأموال والمشتغلين فى النقل البحرى ، وتجار التجزئة والصناع وأصحاب الحرف والمشتغلين بالزراعة فى الأراضى المحيطة بالعاصمة ، الإسكندرية .

وتشير الدلائل إلى أنه منذ عصر البطالمة كان يهود الإسكندرية - وبما عرف عنهم من دهاء - يتخذون أسماء إغريقية ويرتدون ملابس الإغريق ويتزودون بثقافاتهم .. وعندما جاء الرومان .. فعلوا نفس الشىء .. ولذلك أصبح اليهود ، فى نظر الإغريق بالإسكندرية جنسًا منافقًا كريها لا يقبلونه فى مجتمعهم ، ويرون الخير كل الخير فى قطع دابرهم ، مما أفضى إلى العديد من المنازعات الدموية بين إغريق الإسكندرية وسكانها من اليهود .

أما مجتمع اليهود فى مصر خارج الإسكندرية فكان يتكون من أصحاب الأراضى ، وأصحاب المهن الحرة ، وأعمال النقل فى النيل ، وأرباب المهن الوضيعة ، والعبيد المحررين .. وكانوا يشاركون المصريين بيئتهم ويمارسون مهنهم وحرفهم .. وتشبهوا بالمصريين حتى شاعت الأسماء المصرية بينهم .. وقد عثر فى مصر الوسطى على مومياء محنطة تحمل صور أصحابها وأسماءهم ذات الأصل اليهودى .

ولكن ليس هناك من الدلائل ما يشير إلى أن كل يهود مصر كانوا يحنطون جثث موتاهم .. ذلك أنه قد توافرت لهم فى ريف مصر كل أسباب الاحتفاظ بدينهم وممارسة حياتهم وعاداتهم وعقائدهم وطقوسهم الخاصة ..

وإذا كان الرومان قد أظهروا عطفهم على اليهود بالاعتراف بامتيازاتهم القديمة .. فان اليهود لم يرضوا - فى أعماقهم - عن الرومان .. لأنهم رفضوا إدماجهم فى عداد مواطنى مدينة الإسكندرية .. ولم يحموهم من عداء الإسكندريين من الإغريق ، وفرضوا عليهم دفع ضريبة الرأس كاملة كالمصريين .. ولذلك فقد حاولوا الثورة على الرومان فى عهد الإمبراطور «تراجان» للتخلص من الحكم الرومانى .. وعندما هزموا .. استسلموا .. ولكن مسالمتهم للرومان لم تكن عن رضا ، بقدر ما كانت مسالمة بحكم الظروف التى كانت أقوى منهم ، سواء من حكام الرومانيين .. أم من إغريق مصر .. الذين كانوا يبادلونهم العداء .. نظرا لنفاقهم السياسى والاجتماعى لحكام العصرين معا .

رابعاً - المصريون :

كان المصريون .. سواء فى العهد الإغريقى أو الرومانى .. فى نهاية السلم الطبقى .. بل فى الدرك الأسفل لهذا السلم ، وكانوا قبل الفتح الاسلامى مباشرة فى العصر الرومانى ، قد انقسموا إلى عدة فئات :

فئة الكهنة :

.. وكانت أعظم فئات المصريين شأنا وأرفعها مقاما وأوسعها نفوذا ، مما حدا بالرومان إلى اقتفاء أثر البطالمة الأوائل فى إضعاف قوة رجال الدين المصريين .. فانتزعوا ملكية جانب من أراضى المعابد التى تتمتع بحق حماية اللاجئين إليها .. وإذا كانت الحكومة الرومانية قد أعفت أول الأمر عددا من كهنة كل معبد من دفع ضريبة الرأس ، فإنها عملت بعد ذلك على إنقاص هذا العدد ، ولا جدال فى أن الغالبية العظمى من رجال الدين المصريين احتفظوا بثقافتهم القديمة الخاصة التى كانوا يتوارثونها ، ويعملون على بث تعاليمها فى نفوس مواطنيهم ، ومع ذلك يصعب أن نتصور أن النابهين منهم على الأقل لم يأخذوا بقسط الثقافة الإغريقية .

أصحاب الأراضى :

وكان يلى طبقة الكهنة ، فئة أصحاب الأراضى ، وكان أفرادها على شىء من اليسر ، بل دأب الكثير منهم - قبل مجىء الرومان - على التشبه بالإغريق فتعلموا الإغريقية وتزاوجوا مع عامة الإغريق المنتشرين من حولهم فى أرجاء البلاد .. ومع ذلك لم يكن تشبههم بالإغريقيين سوى طلاء خارجى ، فقد كان من العسير فصم صلتهم بالماضى ، وتغيير طابع عقليتهم أو دخائل نفوسهم ، بسبب استمساكهم بديانتهم التقليدية .. وعلى كل حال فمن الراجح أن صبغتهم الإغريقية لم تكسبهم أية ميزة من ناحية وضعهم القانونى ، بمعنى أن الحكومة الرومانية لم تساوهم بمواطنى المدن الإغريقية ، ولا حتى بمواطنى عواصم المديريات ، ولم تعتبرهم إلا مصريين عليهم ما على سائر المصريين من تكاليف وضرائب وتبعات .. بل لعلهم من هذه الناحية كانوا أسوأ حظا من غيرهم من المصريين ، إذ أن الأمر فى حالهم لم يقف عند حد أداء الضرائب المفروضة على المصريين ، بل كان يتعدى ذلك تكليفهم (كأصحاب أراض وكبار مزارعين) بالإسهام فى زراعة الأراضى المهجورة ، لتوسيع الرقعة المزروعة من مصر لصالح شعب (روما) ..

وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تختار منهم صغار موظفيها المحليين لإلمامهم بالإغريقية (اللغة الرسمية للبلاد أيام الرومان) .. وكذلك لما لديهم من أملاك كانت تستطيع أن (تستوفى) منها استحقاقاتها من الضرائب فى حالة عجزهم عن النهوض بالتزامات وظائفهم على نحو يحقق لها أغراضها المالية كاملة .

ربين :

ويأتى بعد ذلك فئة المحاربين المصريين القدامى .. وهذه لم يعد لها كيان
، فى العصر الرومانى . فقد منع المصريون من الانخراط فى سلك الفرق
نية ، إلا فى القرن الثانى عندما اضطر الرومان إلى التجنيد محليا ، فالرومان
وا ما حدث فى عهد الإغريق عندما أدى الاعتماد على المحاربين المصريين
قعة (رفح) عام (٢١٧ ق.م.) إلى انعاش الروح القومية بين المصريين فى
، واندلاع لهيب الثورات الوطنية ضد البطالمة .. ولذلك كان التجنيد المحلى
مصر الرومانى . الذى لا يمنح المصريين حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى
«كراكلا » . مقصورا على الإغريق والشرقيين المقيمين فى مصر .. ومع ذلك
سمح للمصريين بالعمل فى أسطول مسينوم .

ة :

وكان هؤلاء يأتون فى مؤخرة المؤخرة من طبقات المصريين ، وكانت غالبيتهم
ى تشتغل بالزراعة وكثيرون منهم يمارسون مختلف الحرف والصناعات ، وقد
الرومان عليهم جميعا كافة الالتزامات وأداء ضريبة الرأس كاملة ، وحرموا
استعمال اللغة « الديموثيقية » حتى فى عقود معاملاتهم الخاصة .

ما كانت الأمية متفشية بين عامة الإغريق فى العصر الرومانى ، فقد كانت أكثر
بين عامة المصريين ، الذين كانوا يعيشون من خلال تراث أجدادهم ، محتفظين
هم وتقاليدهم مستمسكين بدياناتهم الفرعونية القديمة ، إلى أن اعتنقوا المسيحية
أو كرها[1] . ولعل أهم ما دفع لانتشار المسيحية فى مصر . إلى جانب إنشاء
سة المسيحية الكبرى بالإسكندرية . كان بسبب تخصيص بعض المدارس فى
القساوسة واستبدال الإنجيل بهوميروس وكانت هذه المدارس منتشرة فى
سم المديريات .. وكانت مهمتها نقل وتعليم الحضارة واللغة الإغريقية .. قبل
يصها لنشر المسيحية ، وإعداد الكوادر من الكهنة والقساوسة .

سريون يثورون على الرومان أيضا :

وبرغم الفشل المرير الذى انتهى إليه كفاح المصريين ضد البطالمة الإغريق ،
م القوة الكبيرة التى وضعها الرومان فى مصر ، فإنه لم تكد ، تمضى شهور
على الفتح الرومانى ، حتى هب المصريون ثائرين على الغزاة الجدد .. هكذا
عتاد أو سلاح .

أيضا من طيبة .. رمز المقاومة المصرية القديمة انطلقت الثورات ضد
مان .. كما انطلقت منذ سنوات ضد الإغريق .. فقد رفعت لواء الثورة ضد

اريخ الحضارة المصرية . جـ ٢ ص ٧١٥ .

الرومان منطقة طيبة التى أقضَّت سابقا مضاجع البطالمة ، بتزعمها الحركات الثورية ضدهم ، مما حدا ببطليموس التاسع إلى شن حرب شرسة على العاصمة الوطنية القديمة طيبة وتخريبها تخريبا مروعا .. أيام الإغريق ..

وتكرر المشهد أيام الرومان ..

خاصة وقد بلغت ثورة المصريين ضد الرومان حدا من الخطورة ، دفع أول حاكم رومانى لمصر .. واسمه (كورنيليوس جالوس) الى تجريد حملة قوية لقمعها .. ويبدو أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا .. بل أسهمت فيها الدلتا أيضا ، إذ يحدثنا « استرابون » بأنه عندما ثارت هيرووُنيوليس (تل المسخوطة فى شرق الدلتا) زحف عليها كورنيليوس جالوس وأخضعها بعد معارك وحشية ..

ولا تذكر المصادر نشوب ثورات عامة بين المصريين بعد ذلك إلا تلك الثورة المعروفة (بحرب الرعاة) ، التى وقعت عام ١٧٢ م فى منطقة الدلتا الساحلية شرق الإسكندرية ، وقد تزعم هذه الثورة كاهن مصرى يدعى اسيدرورس ، واشتركت فيها جموع كبيرة من المزارعين والرعاة المصريين الذين تمكنوا فى بداية المعارك من القضاء على الحامية الرومانية التى ذهبت لقمع ثورتهم ، ثم زحفوا غربا نحو الإسكندرية وتمكنوا من هزيمة الكتائب الرومانية التى تصدت لزحفهم .. حتى خيف من وقوع الإسكندرية فى قبضتهم مما اقتضى استدعاء نجدة عسكرية رومانية من سوريا .. خف على رأسها (أفيدوس كاسيوس) حاكم ولاية سوريا (عام ١٧٥ م) ، وقد لجأ هذا القائد إلى حيلة المفاوضات ، حتى نجح فى بث الفرقة بين صفوف الثوار ، ثم قاتلهم متفرقين ، وانتصر عليهم فنادت به الفرق السورية إمبراطورا ، لكنه لم يلبث أن لقى حتفه بعد ذلك بقليل .. فى حادث غامض ..

من هذا يتبين أن سوء الحكم الرومانى فى مصر - قبل الفتح - لم يحظ برضا أى فريق من سكانها ، سواء كانوا من الإغريق أو من اليهود أو من المصريين .

ولذلك كان دخول المسيحية إلى مصر .. نوعا من الخلاص .. لكى يلتف - الشعب الممزق نحو كيان روحى يلم أشتاته .. ويوحد أهدافه .. ويخلق نوعا من الوحدة المفتقدة .. فَقَدَ - قسرا - هويته المصرية .. ومعتقداته الفرعونية .. وفقد كذلك حتى حقوق المواطنة فى أرضه .. بل فقد فى النهاية نفسه وأرضه ذاتها ، التى أصبحت ملكا لإمبراطور روما وشعب روما ..

وانتشرت المسيحية بين شعب مصر .. وما لاقاه فى سبيل التمسك بنقائها وطهارتها - أيام الرومان - قصة أخرى وعذابات أخرى .. ومآس أخرى .. نلمح تفاصيلها التراجيدية فى سطور الفصل القادم ..

الفصل الثانى

صراع أقباط مصر .. ضد « هرطقة » الرومان



قبل الفتح الاسلامى بحوالى ستة قرون .. دخلت المسيحية مصر فى بداية القرن الأول ا لميلادى ، فى وقت كانت فيه أفكار الناس مشتتة بين عشرات المعبودات ، التى خلفتها لهم الديانات الفرعونية واليونانية بالإضافة إلى الديانات اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى .

وكما دخلت اليهودية مصر من خلال حضور قوى .. ودعوة مباشرة من موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، فقد كانت الدعوة إلى المسيحية فى مصر . ذات حضور قوى ، من خلال رحلة المسيح والعائلة المقدسة إلى مصر هربا من « هيردوس » الحاكم الرومانى للشام .. الذى أمر بقتل كل طفل - غيروثنى - عمره أقل من سنتين ..

وقد بدأت هذه الرحلة من سيناء ، وكان أفرادها : السيدة العذراء وابنها المسيح ويوسف النجار وسالومة .. ومرت على الفرمة .. فتل بسطة (بجوار الزقازيق) حيث لم يقبلهم أهلها ، فنزلوا بجوارها إلى أن رحلوا إلى مدينة (سمنود) ثم اجتازوا النيل غربا إلى (جبل النطرون) ومنه إلى (أشمون) ثم إلى قرية متليس .. ثم رحلوا إلى (القوصية) .. فقرية (مير) .. ثم إلى جبل (قطام) - مكانه دير المحرق الآن .. حيث سمعوا بموت « هيردوس » بالشام فذهبت العائلة المقدسة إلى بابليون (قرب دير القديس أبو سرجة بمصر القديمة) ثم إلى المطرية حيث استظلت بالشجرة المقدسة الموجودة حتى اليوم .

ومنها عادوا إلى الشام ليواصل المسيح رسالته المقدسة إلى العالم كله .

كذلك كانت الدعوة للمسيحية ذات حضور قوى ومباشر .. لأنها لم تصل للمصريين .. عن طريق التابعين لرسل المسيح (الـ ٧٠) .. ولكنها .. وصلت على يد اثنين من أقوى رسل المسيح هما الرسول بطرس وتلميذه الرسول مارمرقص .. أحد كتبة الإنجيل العظام ..

وقد التقى مارمرقص باستاذه ماربطرس فى بابليون فى مصر ... حيث راجع مع أستاذه « انجيله » - المعروف باسمه حتى اليوم - ثم عاد الرسول بطرس إلى الشام ليواصل مهمته .. بينما اتخذ مارمرقص الإسكندرية مقرا لنشر المسيحية ، حيث كانت المدينة مركزاً حضاريا عالميا .. وملتقى للتجارة العالمية ، وتمتلىء بالمصريين والحبش والنوبيين واليهود واليونانيين ..

وتتلمذ على يديه هناك العديد من المصريين رجالا ونساء .. وازدهرت المسيحية فى الإسكندرية حتى ثار عليه حكام الرومان الوثنيون .. فهاجر إلى مسقط رأسه فى المغرب .. وعاش بها عامين .

وعندما عاد القديس مارمرقص للإسكندرية فى أواخر سنة ٦٧ م .. لاحظ ازدهار المسيحية بين شعبها .. فأنشأ بها المدرسة اللاهوتية - وهى أول مدرسة لاهوتية فى العالم - ثم طاف بالقطر .. يبشر برسالة المسيحية الصافية ، الخالية من البدع والمؤثرات الوثنية أو الهرطيقية . وفى يوم (٢٩ برمودة - ٢٦ أبريل) من عام ٦٨ م .. وبينما كان المسيحيون يحتفلون بعيد الفصح ، والوثنيون بعيد إلههم (سيرابيس) أخذ القديس مرقص يقبّح عبادة المخلوق دون الخالق .. ونهاهم عن عبادة هذه الأوثان .. والانسياق وراء هذه الخرافات ..

ولما سمع منه الوثنيون - وكانوا يكرهونه - هذه النصائح الصريحة استنكروها .. وهاجوا فى المدينة طالبين رأس القديس مرقص .

وتربصوا به حتى قبضوا عليه وربطوا حبلا فى عنقه ، وأخذوا يطوفون به فى شوارع المدينة طول النهار ، ويجرونه فوق الصخور فى أبشع عملية سحل عرفها التاريخ ، حتى تمزق لحمه وتهشمت عظامه ، وسال دمه البرىء حتى غروب الشمس ، فألقوا به فى غياهب سجن رهيب ، ثم عادوا فى الصباح إلى تمثيلهم الفظيع وهم يزأرون جروا « الثور إلى كنيسة بوكاليا » .. وكان القديس - خلال عملية تعذيبه البشعة - يسبح الله ويشكره حتى فاضت روحه الطاهرة واستشهد فى (٣٠ برمودة ٦٨ م) وحاول الوثنيون حرقه .. ولكن الله ساق ريحا عاتية فاطفأت النار .. وخطف المسيحيون جسد القديس ودفنوه بكنيسة « بوكاليا » بالإسكندرية ..

وفى يوم استشهاد القديس مرقص تتبع حكام الرومان الوثنيون نصارى الإسكندرية وأمعنوا فى قتلهم وسحلهم ، فملأوا بجثثهم أكثر شوارع المدينة ، وكان يوما من أتعس أيام التاريخ المصرى الملىء .. بالقهر والتنكيل .

وفى آخر القرن الأول نما عدد المسيحيين فى الإسكندرية فامتد إليهم لهيب اضطهاد القيصر « تراجان » - الذى تولى سنة ٩٨ م - واشتد عليهم ، واستشهد فى ذلك الاضطهاد (البابا كونونوس) البطريرك الرابع .. و ... .

منذ ذلك التاريخ أصبح اضطهاد أقباط مصر .. جزءا من حياة نصارى مصر .. وبشكل لم يحدث له مثيل لأية فئة أخرى من نصارى العالم كله ..

* ويقول الدكتور إبراهيم نصحى فى كتاب « الحضارة المصرية » إن الصراع بين المسيحية فى مصر وحكامها الرومان بدأ منذ القرن الأول الميلادى ، ولم ينته إلا بدخول العرب مصر .

وهكذا استمر اضطهاد حكام الرومان لنصارى مصر .. حتى بعد أن دخلت المسيحية روما ذاتها .

فقد اعتنقت روما ـ وبعدها ـ بيزنطة (القسطنطينية) العقيدة المسيحية (الغربية) المخالفة لعقيدة أقباط مصر ، حيث كانت الكنيسة القبطية تعتقد بـ (الطبيعة الواحدة) للسيد المسيح .. (الطبيعة الإلهية والبشرية) بينما كانت كنيسة روما تعتقد (بالطبيعتين) وإرادتين مختلفتين .. وكان ذلك سببا فى الخلاف الدامى الذى استمر لعدة قرون .. ولم ينته .

الاضطهاد تحت الحكم الرومانى :

وبهذا فكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهادا عنيفا .. اضطهدت بنفس القسوة من معظم أباطرة الرومان المسيحيين ..

ولكى تتضح لنا حلقات هذا الصراع من ذلك الاضطهاد الدامى ، بين الحكم الرومانى ، وأقباط مصر ، فانه يحسن بنا أن نقسمه أو نقرأه من خلال ثلاث فترات زمنية :

الأولـــى :

فترة الاضطهاد الأولى مع أباطرة الرومان الوثنيين .. من بداية القرن الأول الميلادى حتى عام ٣١٣م .. حيث وجه الأباطرة الوثنيون .. اضطهادهم لكل المسيحيين فى الإمبراطورية .. وخاصة نصارى مصر نظرا لما كانوا يعتقدونه بخطر المسيحية على عروشهم الغارقة فى الفساد والدعارة .. وقد استخدم الأباطرة مع أقباط مصر كافة الوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ ونشر ورجم وتقطيع أعضاء وتهشيم أسنان والإلقاء إلى الوحوش المفترسة دون جدوى .

بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم إلى الولاة مجاهرين بمسيحيتهم ، حتى إن الأنبا أنطونيوس الراهب الناسك أتى إلى الإسكندرية وعمره ٧٠ سنة ، لينال شرف الموت فى سبيل المسيحية ، وسرت بعد ذلك فى أقباط مصر موجة طاغية من شهوة الاستشهاد .

وبعد أن كان الأباطرة يعمدون إلى قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ، بل مدنًا بأكملها .. حتى وصل عدد شهدائهم مئات الآلاف .. مما اضطر أباطرة الرومان الى ايقاف هذه المذابح (مؤقتا) .. لما أدت إليه من خراب إيراد المزارع .. وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة .

وقد اختتمت هذه المذابح الوثنية .. باستشهاد البطريرك رقم ١٧ (بطرس الأول) عام ٣١١م .. الذى رفض مع شعبه الخضوع لوثنية روما .

والفترة الثانية :

من حلقات الاضطهاد الدامى (٣١٣م إلى ٤٥١ م) ، وكانت أيضا بين أقباط مصر وأباطرة الرومان المناصرين للهرطقة المسيحية .

وفى هذه الفترة تصدى بطارقة كنيسة الإسكندرية لكنيسة روما حفاظا على الإيمان النقى للمسيحية فى مصر (كما جاءت فى بشارة المسيح وتعاليم القديسين ماربطرس وماربولس ومارمرقص) ..

ولكن بعض الخارجين على الكنيسة القبطية من أمثال (أريوس) حاولوا إدخال بعض الخرافات والبدع على نقاء العقيدة القبطية النقية .. وقد تصدى لهذه الهرطقة العالم المسيحى السكندرى (اثناسيوس) ..

وقد استطاع (اثناسيوس) فى مجمع نيقية المسكونى .. الذى عقد بأمر الإمبراطور قسطنطين .. إدانة أفكار (أريوس) أمام ٣١٨ أسقفا .. وتمكن من ذلك وحرمه من الكنيسة ..

وبعد هذا اشتهر اسم كنيسة الإسكندرية فى العالم كله .. وأخذت مكانها بين كنائس العالم الأربع (روما) و(القسطنطينية) و(الإسكندرية) و(أورشليم) .. وإذا كانت لروما أهميتها السياسية كعاصمة .. فقد كانت للاسكندرية أهميتها الدينية .. حيث كانت كنيستها تتصدى لأفكار الهرطقة (الآريوسية) وغيرها .. التى تحاول إخراج المسيحية عن نقائها وطهارة أفكارها .

ورغم ذلك .. فقد عادت (الآريوسية) إلى كنيسة الإسكندرية عنوة بعد موت الإمبراطور قسطنطين .. وتم تعيين بطارقة (على مذهب أريوس) فى كنيسة الإسكندرية .. وقاوم الشعب القبطى هذا التدخل العقيدى .. وتم عزل الأنبا اثناسيوس من كنيسة الإسكندرية وعاد الاضطهاد .. واستمرت مقاومة شعب مصر القبطى للهرطقة .. والخرافات .. ولأباطرة الرومان المناصرين لهذه الهرطقة .. والذين كانوا يفرضون على كنيسة الإسكندرية أساقفة من الهراطقة التابعين (للآريوسية) الرومانية ، واستمر هذا الاضطهاد الثانى حتى عام ٤٥١ م .

والفترة الثالثة :

فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا روما (المسيحى) من ٤٥١ إلى ٦٤١م . أى إلى بداية الحكم الإسلامى لمصر ..

وفى هذه الفترة أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل فى أعنف صورها .. رغم اعتناق الأباطرة للمسيحية ..

ولأنها مسيحية مختلفة عن المعتقد المسيحي للكنيسة القبطية المصرية .. حول (طبيعة المسيح) فقد استمر الاضطهاد ـ بين أخوة الدين ـ وربما بصورة أعنف .. وهو خلاف يشابه كثيرا ذلك الخلاف الذى حدث أيام الخليفة المأمون بين المعتزلة والسنيين حول طبيعة (القرآن) ..

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيسة روما (التى تؤمن بطبيعتين للمسيح) وكنيسة الإسكندرية التى تؤمن (بطبيعة واحدة له) أدى إلى انقسام جذرى فى العالم المسيحى من (عام ٤٥١ .. وإلى يومنا هذا) ..

ومن يومها عرف أتباع كنيسة روما باسم (الكاثوليك) ، بينما عرف أتباع كنيسة الإسكندرية ومن سار على نهجها (الأرثوذكس) ، وتبعهم أيضا السريان الذين أطلق عليهم « اليعاقبة » ..

وتتلخص وقائع هذا الخلاف .. عندما رفض الأنبا (ديسقورس) بطريرك الإسكندرية الموافقة على تفسيرات عقائدية قال بها (لاون) أسقف كنيسة روما حول طبيعة المسيح .. واستخدم (لاون) نفوذ إمبراطور روما فى نفى (ديسقورس) بطريرك الإسكندرية عن كرسيه .. وفى محاولة « إرغام » المصريين ـ من أقباط مصر ـ على قبول ما رفضه بطريركهم .. وحرمان كل من لا يوافق على (تفسيرات لاون حول طبيعة المسيح) .. من الكنيسة ..

وقاوم المصريون .. وتعرضوا ـ من أجل الثبات على مبادىء كنيستهم لمذابح مروعة .. وخاضوا حركة استشهاد جديدة .. كالحركة التى خاضوها فى عهد أباطرة الرومان الوثنيين .. والهراطقة .. بل ان عدد الذين استشهدوا منهم على يد المسيحيين من اتباع (مذهب الطبيعتين) المخالف لمذهب كنيسة الإسكندرية ، زاد بكثير على عدد الذين استشهدوا على أيدى الوثنيين !!

وكان الملك ـ المعين من قبل روما ـ فى مصر كلما اختار الشعب المصرى بطريركا قبطيا ، أمر بعزله عن كرسى الكنيسة .. فينفى من مصر ، أو يهرب مختفيا فى أرجائها ، ويعين بدلا منه بطريرك ملكى من اتباع مذهب كنيسة روما المؤمنين بمقولة (الطبيعتين) ..

ثم يقوم الملك بتنصيب هذا البطريرك الدخيل ـ بالقوة ـ على كرسى الكنيسة القبطية الرئيسى فى الإسكندرية فى حفل مهيب أملا فى (إرغام) أقباط مصر على قبول مذهب (الطبيعتين) المخالف لمذهبهم .. فإذا رفض أقباط مصر هذا البطريرك

(الدخيل) .. ومذهبه الرومى أعمل فيهم الملك - بأمر الإمبراطور - القتل والسجن والنفى ، وكافة أنواع الاضطهاد .

ولكى يزداد الاضطهاد بشاعة .. لجأ أباطرة الرومان منذ عهد (يوستنيانوس) إلى جعل (البطريرك الملكى الدخيل) يجمع - أيضا - الى وظيفته الكهنوتية منصب والى مصر .. حتى تجتمع له السلطتان معا .. ويزداد احتياج أقباط مصر له .. لعلهم يخضعون لمبدأ روما الكنسى .

ولما كانت جميع كنائس الإسكندرية فى أيدى هؤلاء الدخلاء فإنهم استطاعوا أن يقوموا بطرد ونفى جميع البطارقة والأساقفة الأقباط من هذه الكنائس .. وألا يمكنوهم حتى من دخول مدينة الإسكندرية .. خاصة أنهم - كولاة يملكون السلطة المدنية بجانب الدينية - استخدموا القوة العسكرية أيضا فى اضطهاد أقباط مصر .. كما يشاءون .

المقوقس وغزو هرقل :

كان هذا الحال .. عندما بدأ المسلمون - فى الجزيرة العربية - يفكرون فى فتح مصر ..

كان المقوقس هو الحاكم الملكي من قبل روما الذى يجمع بين السلطة المدنية كحاكم مصر و .. السلطة الدينية .. كبطريرك للكنيسة القبطية في مصر .. وهذا هو سر أن بعض الكتب كانت تطلق عليه حاكم مصر .. والبعض الآخر كان يطلق عليه كبير أقباط مصر .. وفى الواقع أنه كان حاكما مدنيا لمصر .

أما بالنسبة للكنيسة القبطية فقد كان أحد (الدخلاء) على بطارقة هذه الكنيسة العتيدة والمفروض (دينيا) على أقباط مصر .. أما البطريرك الحقيقى فى ذلك الوقت .. فكان الأنبا « بنيامين » وهو البطريرك رقم (٣٨) فى تاريخ هذه الكنيسة القبطية .

وكان كبطارقة هذه (المرحلة من الاضطهاد الرومانى) هاربا فى مكان غير معلوم فى صعيد مصر مع عشرات من الأساقفة ، بعيدا عن أعين جواسيس روما ، الذين كانوا يطلبون رأسه .

*** فما قصة هذا « المقوقس » (الذى تلقى الرسالة الشهيرة من النبى محمد صلى الله عليه وسلم) ؟ ..**

* **وما قصة « الأنبا بنيامين » (البطريرك الثامن والثلاثين .. الذى حضر وقائع الفتح الاسلامى لمصر) ؟ ..**
* **وما قصة عمرو بن العاص .. مع مصر وحكاية زيارته الخاصة للإسكندرية أيام الجاهلية .. قبل أن يسمح له الخليفة عمر بن الخطاب بفتحها ؟ .**

الأقباط واضطهاد البيزنطيين :

كان المقوقس ـ كما ذكرت ـ مجرد حاكم لمصر .. ولكنه كان البطريرك (غير الشرعى) لأقباط مصر .. أما الذى فرضه على شعب مصر .. فهو (هرقل) أحد أباطرة الرومان .. وكلمة (مقوقس) كلمة يونانية وتعنى « حاكم » .. وكان العرب يسمونه « عظيم القبط » أما اسمه الحقيقى فكان (جرجس بن مينا) .. وهو مصرى ولكنه يونانى الأصل ، من الذين استقر أجدادهم فى الاسكندرية بعد انتهاء حكم البطالسة اليونانيين ورغم يونانيته فقد كان الرجل ـ يميل لأقباط مصر ، ويرثى لحالهم .

والسؤال : لماذا إذن لم يتصد للفتح الاسلامى لمصر .. وتواطأ ـ مع قادة الفتح ـ على أباطرته الرومان الذين أتاحوا له حكم مصر ؟.

الواقع أن الحكم الرومانى فى مصر كان قد ضعف وترهل .. فى روما والقسطنطينية .. مما دفع (هرقل) ـ والى أفريقيا الرومانى ـ إلى محاولة السيطرة على مصر .. وفشل فى المرة الأولى .. ثم نجح فى الثانية .. ولكن الفرس دهموا دولته فى مصر ، واستولوا عليها .. لمدة ١٠ سنوات .. قتلوا خلالها ٨٠ ألف مصرى و٧٠٠ راهب ودمروا ٦٢٠ ديرا للرهبان والراهبات .

وعاد هرقل بعد توطيد ملكه على المملكة الرومانية فى الشام ، حيث لاحظ أن القابض على أمور أقباط مصر هو (المقوقس) .. فتركه يحكم واهتم بالسيطرة « العسكرية » على مدن مصر ، ولكى يتقرب هرقل من المصريين كلف كيروس أحد أساقفة الرومان .. بأن يقرب بين مذهب الكنيسة الرومية والكنيسة المصرية .

ولكن كيروس أساء إلى المصريين وفشل فى مهمته .. فهرب كثير من الأقباط من الاسكندرية .. بعد أن عاد الاضطهاد لرجال الكنيسة القبطية وعلى رأسهم (البطريرك بنيامين) .

ولذلك انضم (المقوقس) الذى كان يميل للأقباط إلى قضية المصريين والكنيسة القبطية ، وأصبح لديه استعداد للتفاهم مع أيه قوة يمكن أن يخلص بها الأقباط من اضطهاد البيزنطيين .. خاصة وقد حدث بعد ذلك الاتصال السياسى والدينى بينه وبين

تلك القوة الوليدة فى الجزيرة العربية بقياد محمد ﷺ .. عن طريق ذلك الخطاب الذى وصله مع رسوله (حاطب بن بلتعة) .. فى (٦ هـ / ٦٢٧م) .. ولكن العرب لم يجدوا .

رسائل الرسول إلى المقوقس :

ويروى المؤرخون أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فى السنة السادسة من الهجرة عندما استتبت له الأمور فى المدينة ، بعث برسائل إلى كسرى الفرس وقيصر الروم ومقوقس مصر وبعض ولاة الجزيرة العربية الخاضعين للفرس والروم ، وحاكم عمان .

ولأن المقوقس ـ رغم أصله اليونانى ـ كان قد تأثر بالمذهب الدينى الذى كان يؤمن به أقباط مصر ، فقد أحسن استقبال رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم (حاطب ابن بلتعة) ومن معه .. فقد كانت ثقافته المسيحية الحقيقية (قبل تحريفها) تبشر فى كتب الرهبان بأن نبيا سيبعث بعد سيدنا عيسى عليه السلام .. وعندما وصل « حاطب » إلى الإسكندرية ، ووجد المقوقس فى مجلس مشرف على البحر ، ركب البحر حتى وصل إلى مجلسه .. ودفع اليه بكتاب رسول الله وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط .. سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان تولوا فعليك اثم كل القبط .. ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فلما قرأه .. قال لحاطب مناقشا :

ـ ما منع رسولكم إن كان نبيا أن يدعو على فيسلط على ؟

فقال له حاطب : وما منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه .. بأن يفعل به أو يفعل فيه .

فسكت المقوقس لحظات ثم طلب من (حاطب) إعادة ما قال .. فأعاده عليه فعاد المقوقس إلى الوجوم مرة أخرى ، فقال له حاطب :

ـ « انه كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى (يقصد فرعون موسى) فانتقم الله به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك قبل أن يعتبر بك . وان كان لك دين لن تدعه الا لما هو خير منه وهو الإسلام ، الكافى لله به عما سواه .. وما بشارة موسى بعيسى

إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل .. ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به » .

وعاد المقوقس يقرأ كتاب محمد رسول الله .. ولما انتهى منه .. طواه .. ووضعه فى « علبة من العاج » وختم عليه .

حوار المقوقس السرى :

وقبل أن يرد المقوقس على محمد رسول الله ورسالته .. استبقاه أياما فى مصر .. واستدعاه الى مجلسه الخاص فى احدى الليالى ، وتعمد ألا يكون فى مجلسه أحد من حاشيته الا ترجمان ، ثم قال المقوقس لحاطب (رسول محمد) :

- ألا تجيبنى عن أمور اسألك عنها ، فإنى أعلم أن صاحبك قد تخيرك حيث بعثك لى ..

قال حاطب :

- لا تسألنى عن شىء الا صدقتك فى الإجابة .

قال المقوقس :

- إلى ما يدعو محمد ؟ .

قال حاطب :

- إلى أن تعبد الله ، لا تشرك به شيئا وتخلع ما سواه ، ويأمر بالصلاة ..

قال المقوقس :

- فكم تصلون ؟ .

قال حاطب :

- خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد ، وينهى عن أكل الميتة والدم .

قال المقوقس :

- فمن أتباع محمد ؟ .

قال حاطب ؟ .

- الفتيان من قومه وغيرهم .

قال المقوقس :

- فهل يقاتل قومه ؟ .

قال حاطب :

- نعم .

قال المقوقس :

ـ صفه لى .

قال حاطب : فوصفته بصفة من صفاته .. ولم أكمل حديثى حتى قاطعنى المقوقس قائلاً :

ـ ولكن بقيت أشياء لم أرك ذكرتها (ومضى كأنه يقرأ من كتاب محفوظ) .. فى عينيه حمرة ما تفارقه ، وبين كتفيه خاتم النبوة .. يركب الحمار .. ويلبس الشملة ، ويجتزىء من التمرات والكسر .. لا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم .

وقلت للمقوقس : هذه صفاته

قال المقوقس :

ـ قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى (لم يظهر بعد) .. وقد كنت أظن أن مخرَجَهُ من الشام .. وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ، فأراه قد خرج فى العرب .. فى أرض جهد وبؤس والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه ، ولا أحب أن يعلم أحد بمحاورتى إياك .. وسيظهر هذا النبى على البلاد .. وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه (مصر) حتى يظهروا (ينتصروا) على ما هاهنا .. وأنا لن أذكر للقبط من هذا حرفا ، فارجع إلى صاحبك .

ثم دعا المقوقس كاتبا قبطيا يكتب العربية ، فكتب رد المقوقس لمحمد رسول الله ، وهذا نصه :

« لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام . أما بعد ، فقد قرأت كتابك (وفهمت) ما ذكرت ، وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام قد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت لك بغلة لتركبها ، والسلام .

وتقول صفحات التاريخ :

إن سبب إرسال المقوقس للجاريتين والهدية .. هو ما روى عن المقوقس بأنه لما جاءه كتاب رسول الله ضم الكتاب إلى صدره وقال : هذا زمان يخرج فيه النبى الذى وصفه ونعته فى كتاب الله (الكتاب المقدس) .. وصفة هذا النبى المرتقب أنه :

١ ـ لا يجمع بين أختين فى نكاح (زواج)
٢ ـ وأنه يقبل الهدية .
٣ ـ وأن خاتم النبوة بين كتفيه .
٤ ـ ولا يقبل مال الصدقة .
٥ ـ وجلساؤه من المساكين .

ثم أرسل مع الجاريتين والهدية رسولا من قبله وطلب منه أن ينظر مَنْ جلساؤه .. وينظر إلى شامة كبيرة فى ظهره .. ففعل .. وقدم للرسول الجاريتين الأختين .. والدابتين .. والعسل والثياب وأعلمه أن ذلك كله هدية فقبل رسول الله الهدية ..

فلما نظر إلى مارية وأختها أعجبتاه .. وكره أن يجمع بينهما .. وطلب من الله أن يختار له إحداهما .. فقال لهما قولا : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .. فبادرت مارية فتشهدت وآمنت قبل أختها .. فاختارها زوجة .. وآمنت الأخرى بعد ساعة ..

فأما مارية فقد ولدت للرسول ابنه إبراهيم ، الذى توفى قبل أن يبلغ ستة عشر شهرا .. وحزن عليه الرسول حزنا شديدا .. ولكنه رفض أن يقدسه الناس .. عندما كسفت الشمس مصادفة يوم وفاته فصاح فى صحابته : « إن الشمس والقمر آياتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لمولد أحد » .

أما أخت مارية فقد وهبها الرسول إلى جهم بن قيس العبدرى .. وهى أم « زكريا ابن جهم » الذى كان خليفة عمرو بن العاص .. فى حكم مصر .

بنيامين وعمرو بن العاص :

هذه قصة المقوقس .. حاكم مصر قبل الفتح الاسلامى ..

فما قصة (الأنبا بنيامين) بطريرك الأقباط الشرعى .. الذى كان هاربا لمدة ٢٠ عاما فى صعيد مصر .. قبيل دخول عمرو بن العاص لمصر ..

جلس بنيامين (البطريرك ٣٨) على الكرسى السكندرى فى أمشير ٣٢٥ ، ٦٢٠م فى عهد هرقل .. وهو أول بطريرك « غير سكندرى » .. فقد كان مسقط رأسه مريوط .. وكانت حياته كلها سلسلة من الآلام .. فلم يكد يرسم بطريركا حتى أوفد هرقل قيصر الرومان بطريركا بيزنطيا مخالفا لعقيدة الكنيسة القبطية .. ليوفق بين عقائد المسيحيين الرومان والمصريين .. فى محاولة من هرقل لنيل رضاء المصريين من خلال مشروع الاتحاد بين الكنائس المختلفة القائل بأن للمسيح «مشيئة واحدة» بدل مقولة «الطبيعة الواحدة» التى يقول بها قبط مصر .. فرفض البابا بنيامين قبول هذا المعتقد الجديد .

فأخذ البطريرك البيزنطى « كيروس » يضطهده هو وأقباط مصر فلما خاف على حياته قرر الهرب وكتب منشورا إلى سائر أساقفة أقاليم مصر ينصحهم فيه أن يختفوا من وجه المحنة الرهيبة المقبلة عليهم .. وجمع كهنة الإسكندرية وأوصاهم بالسهر

على الرعية ، ثم خرج من طريق مربوط على قدميه ليلا ومعه اثنان من تلامذته .. واختفى فى دير صغير بالصعيد بعيدا عن اضطهاد هرقل وواليه غير الشرعى (كيروس) الذى اغتصب كرسى الكنيسة القبطية بالإسكندرية ..

ولما علم كيروس بهرب (بنيامين) قبض على أخيه مينا وأنزل به عذابا عظيما .. فأشعل فى جنبه المشاعل حتى خرج شحم كليتيه وسال على الأرض .. وعندما رفض أن يقول بأن معتقد كنيسة بيزنطة هو الحق .. القوا به فى البحر حسب تعليمات هرقل .

وألزم هرقل - إزاء ثبات قبط مصر على عقيدتهم - المصريين على التمذهب بمذهب كنيسة روما .. وفعلا ضل عدد كبير من الأساقفة الذين لم يطيعوا (الأنبا بنيامين) وبقوا فى المدن وتحت ضغوط العذاب والتهديد .. تمذهب بعضهم - غصبا - بالمذهب الرومانى المسيحى .. ومن هؤلاء كورشن أسقف نقيوس ، وبقطر الفيوم ..

وهكذا عادت سلطة الرومانيين الروحية على كافة كنائس مصر ، وتعرض قبط مصر لبلايا مروعة ، فاغتصبت كنائسهم ، وسلبت منازلهم وهم صاغرون صابرون ثابتون على مبادئهم .. حتى صغرت الحكومة الرومانية فى عيون المصريين .. وانحط قدرها .. وبدأت الأخطار تحيطها من كل جانب .. وبلغت كراهية أقباط مصر ذروتها عندما سمعوا بالفتح الاسلامى على حدود مصر الشرقية حتى قيل : إن الأب بنيامين بطريرك مصر الشرعى الهارب بالصعيد .. هو الذى بعث إلى أساقفته - أو من بقى منهم - أن يأمروا رعايا الكنيسة القبطية بمساعدة العرب الفاتحين لمصر ، لما سمعوا عن عدل خليفتهم عمر ..

وعندما علم الأساقفة المحيطون بـ (بنيامين) اسم قائد الفتح الاسلامى .. وسمعوا أنه يتقرب من المسيحيين بل .. ويحسن معاملة ابنة المقوقس التى عثر عليها فى بلبيس فأرسلها لأبيها فى الإسكندرية معززة مكرمة .. تقدم أسقف منهم اسمه (شنودة) وأعلمه بخبر البطريرك الشرعى الهارب (الأنبا بنيامين) .. فما كان من عمرو بن العاص .. الا أن أرسل كتابا إلى جميع مدن وقرى الصعيد يدعو فيه البطريرك للحضور دون خوف .. ولما حضر الأب بنيامين ذهب إلى عمرو لمقابلته وشكره .. فأكرمه وأقسم له بالأمان لنفسه ولرعيته .. وقيل إنه طلب منه أن يصلى من أجله لفتح مصر ، ورجع البابا بنيامين إلى مركزه فى كنيسة الإسكندرية معززا مكرما .. وعزل عمرو بطريرك روما عن كرسى الكنيسة القبطية .. وقيل إنه لشدة حسرته مص خاتما مسموما فمات .

وعادت قيادة الكنيسة القبطية إلى البطاركة الأقباط .. يزاولون فيها شعائرهم بحرية تامة .. أما الأب بنيامين فقد وجه عنايته للكنائس التى خربها الرومان

والفرس .. وعاد الأقباط الهاربون فى النجوع والأديرة النائية إلى المدن ، ينعمون مع بطريركهم الشرعى (بنيامين) بمزاولة عباداتهم النقية .. النابعة من معتقد الكنيسة القبطية المصرية ، دون أى تدخل .. حتى وافته منيته عام ٦٥٩م بعد أن جلس على كرسى البطريركية تسعة وثلاثين عاما .

عمرو فى مصر قبل الفتح :

والآن .. ما قصة عمرو بن العاص مع مصر .. وإصراره على فتحها رغم الرفض المتكرر لعمر بن الخطاب .. وما قصة زياراته الغامضة للإسكندرية .. وحضوره لمحفل المقوقس بالإسكندرية .. أيام الجاهلية الأولى ؟.

لأهمية هذه القصة ـ وغرابتها فى الوقت ذاته ـ نقرر أننا لم نعثر فى كل الكتب التى رجعنا إليها فى هذه الدراسة .. على تفاصيل هذه القصة إلا ما رواه المؤرخ المصرى الكبير (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم) قال فى مخطوطه النادر الذى طبع فى باريس عام ١٩٢٠م (فتح مصر والأندلس) ، حدثنا (يحيى بن خلد) عن (أبى لهيعة) و(يحيى بن أيوب) عن (خالد بن يزيد) أنه بلغه أن عمرو بن العاص قدم إلى بيت المقدس أيام الجاهلية للتجارة فى نفر من قريش .. وهناك التقوا بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس ، وبعد الصلاة خرج فى بعض جبالها للسياحة .. وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه بين سفوحها وكانت رعية الإبل (بالتناوب) بينهم .. فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر .. فوقف الشماس عند عمرو فاستسقاه عمرو من (قربة) له فشرب حتى روى ونام مكانه تحت شجرة .. وكانت إلى جانب الشماس حفرة فخرجت منها حية عظيمة .. فلمحها عمرو فصوب لها بسهم فقتلها .

فلما استيقظ الشماس نظر إلى الحية التى نجاه الله منها قال لعمرو : « ما هذه » ؟ فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها .. فأقبل الشماس إلى عمرو يقبل رأسه ويقول : « لقد أحيانى الله بك مرتين .. مرة من شدة العطش .. ومرة من هذه الحية .. فما أقدمك إلى هذه البلاد ؟ قال عمرو : « قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا » فقال الشماس : « فكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك ؟؟ » ، فقال عمرو : « رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا فإنى لا أملك الا بعيرين .. فأملى أن أصيب بعيرا آخر فتكون لى ثلاثة أبعرة . قال له الشماس المصرى : « فماذا تكون دية أحدكم » ؟ قال عمرو : « مائة بعير » فقال له الشماس : « لسنا أصحاب بعير إنما

نحن أصحاب دنانير » ، فقال له عمرو : « يكون الف دينار » فقال له الشماس : « إنى رجل غريب فى هذه البلاد ، وإنما قدمت لأصلى فى كنيسة بيت المقدس ، وأسيح فى هذه الجبال شهرا ، وكانت صلاتى وفاء لنذر نذرته .. وأنا الآن أريد العودة لبلادى فهل تتبعنى إلى هناك ، ولك عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين (ألفى دينار) لأن الله تعالى أحيانى بك مرتين » ، فقال له عمرو : « أين بلادك ؟ » . قال : « مصر ، فى مدينة يقال لها الإسكندرية » .. فقال له عمرو : « لا أعرفها .. ولم أدخلها قط » ، فقال له الشماس : « لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها » ، فقال عمرو : « وتفى لى بما تقول وعليك العهد والميثاق » ، فقال الشماس : « نعم على بالعهد والميثاق أن أفى لك وأردك إلى أصحابك سالما » ..

قال عمرو : وكم يكون مقامى فى مصر ؟ .

قال الشماس : شهرا .. تنطلق معى ذاهبا عشرا وتقيم عشراً وترجع فى عشر .. ولك على أن أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعا .

فقال له عمرو : أنظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك ، فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس المصرى وقال لهم :

- تنتظروننى حتى أرجع إليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطره (نصفه) .. على أن يصحبنى رجل منكم انس إليه ، فقالوا : نعم .

وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الإسكندرية ..

وفى الإسكندرية رأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الخيرات والأموال ما أذهله .. وقال : ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من أموال ورجال وخيرات .. وأخذ يتفحص عمارات الإسكندرية وانبهر بجمالها فازداد دهشة على دهشة .

ووافق زيارة عمرو بن العاص للاسكندرية عيد عظيم فيها يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم .. ولهم أكرة (كيس) من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم ثم يتلقونها بأكمامهم .. وكانوا يعتقدون أن من تقع فى كمه هذه الأكره وتستقر فيه لم يمت حتى يصبح ملكا عليهم .

فلما وصل عمرو إلى الإسكندرية أكرمه الشماس إكراما عظيما وكساه ثوبا من الديباج ، وأخذ الشماس عمرو إلى ذلك الحفل الملوكى العظيم وأجلسه وسط الأشراف

حيث بدأوا يترامون الأكرة الذهبية (إياها) حيث يتلقونها بأكمامهم .. ورمى أحد الأشراف بالأكرة (إياها) فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ..

وكانت دهشة الأشراف عظيمة .. وقالوا فى شبه سخرية : ماكذبتنا هذه الأكرة قط .. إلا هذه المرة ..

وقالوا وهم يتضاحكون على أصوات الكئوس : أترى هذا الأعرابى يملكنا نحن .. والله هذا لا يكون أبدا .

ولم يعلق عمرو .. بل ولم يفهم ما يقصدون .. واعتقد أن المسألة لا تعدو مجرد مزاح لم يعره كرجل غريب أى اهتمام .. ومضى مع الشماس يتجول فى الإسكندرية ، وكان الشماس لا يفتأ يقابل أى رهط أو أى مجتمع فى شوارعها إلا روى قصته مع هذا الاعرابى الشهم ، عمرو الذى أنقذ حياته مرتين .. وعمرو سعيد بكل ما يراه .. وعيناه البدويتان تلحظان كل شىء .. وتسجلان فى ذهنه كل ما يراه فى الإسكندرية ، بل فى مصر كلها .

وأوفى الشماس بعهده .. وجمع له من أصحابه الفى دينار دفعوها لعمرو .. وانطلق عمرو مع صاحبه عائدا .. وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا ، وزودهما وأكرمهما حتى رجع وصاحبه إلى بيت المقدس .. وروى لهم (أعاجيب) ما رأى فى مصر والإسكندرية .. دون أن يدرى أن الاقدار قد أعدته لكى يعود إليها فاتحا .. وحاملا لأعظم رسالة .. إلى أعظم شعب .. وأغنى أمة فى ذلك الزمان ..

ولهذا قصة أخرى ..

الفصل الثالث

جيش الفتح فى مصر



لم يتعرض فتح من الفتوحات الإسلامية لتفسيرات متناقضة .. كما تعرض فتح مصر ، وذلك نظرا لاختلاف وجهات النظر بين المؤرخين .. التى تأثرت هى الأخرى بموقف هؤلاء المؤرخين من الإسلام ذاته .. وتأثرت أيضا بانتماءات هؤلاء المؤرخين السياسية والعسكرية والدينية ..

فبعض المؤرخين العسكريين اعتبره « نزهة عسكرية » نظرا لترهل الوضع العسكرى للسلطة الرومانية الحاكمة فى مصر فى ذلك الوقت .. وبعض المؤرخين المسلمين أضفوا على بعض تفاصيله ورجاله من البطولات ما أدخل بعض وقائعه العسكرية العادية .. إلى دائرة الأساطير الخارقة ..

وبعض المؤرخين من أقباط الكنيسة .. رأوا فيه نوعا من الخلاص الربانى الذى بعثته العناية الإلهية لأقباط مصر المخلصين لعقيدة المسيح ذى « الطبيعة الواحدة » .. كما رأى فيه البعض الآخر ، مثل الشماس منسى يوحنا ، صورة أخرى من صور الغزو والاحتلال التى لا تخلو من حوادث السلب والنهب .

أما بعض المستشرقين والمؤرخين الأجانب من أمثال - ديورانت صاحب موسوعة تاريخ الحضارات .. فلم يروا فيه سوى غزو من شعب بدوى فقير متخلف .. سحل أمامه حضارة متقدمة .. أحرق مدناً وقرى .. وبدد تراثا حضاريا قديماً !!.

والواقع أننا نعذر هذه المنطلقات جميعا وبغض النظر عما كتب منها - بسوء نية - لعدم قيمته التاريخية .. فاننا نتوقف قليلا أمام ما كتب منها - بحسن نية - لنؤكد أن الأخطاء التى وقعوا فيها لتفسير هذا الفتح ترجع إلى عوامل مختلفة .. كان أهمها :

أولاً : عدم فهم الفلسفة الأصيلة والأهداف الأساسية للفتوحات الإسلامية بشكل عام ..

ثانياً : أن مصر بالذات كانت - علاوة على سبقها الحضارى - أكثر الدول ثراء بالنسبة لجيرانها .. مما جعل النظرة العامة لغزوها تفسر بقصد محاولة الاستيلاء على (ما بها من خيرات) .

ثالثاً : ما أقدم عليه بعض ولاة مصر - بعد الفتح - من أخطاء وانحرافات تناقض روح القيم الإسلامية ذاتها ..

ولذلك يحسن قبل أن نتكلم عن فتح مصر أن نتكلم عن الفلسفة الإسلامية للفتح الإسلامى بشكل عام .. لنؤكد الحقائق التالية :

أن الفتح الإسلامى (بشكل عام) لم يكن فتحا لتحقيق أهداف « إمبراطورية » أو « سياسية » أو « استراتيجية » لتكوين دولة عظمى تكون عاصمتها (مكة) أو

« المدينة » .. بدليل ضمور نفوذ مكة والمدينة بعد الفتوحات مباشرة .. وانتقال الثقل السياسى إلى دمشق فى عصر الأمويين وإلى بغداد فى عصر العباسيين ثم إلى القاهرة فى عصر الفاطميين ، إلى أن انتهى إلى الاستانة فى عصر العثمانيين .. وكان مواطنو الجزيرة العربية فى جميع العصور متساوين فى مرتبة المواطنة ـ بل وربما أقل ـ مع مواطنى هذه العواصم الجديدة ـ دون أى شعور بالضيق ـ لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم مواطنين فى الدول الإسلامية .. بغض النظر عن (جنسية) العاصمة .. فالفتح الإسلامى كان يرفض الاعتراف (بسيادة) الفاتحين وعبودية البلاد المفتوحة .. وفى قصة عمر بن الخطاب مع ابن عمرو بن العاص .. وابن أحد أقباط مصر خير دليل .. (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) .

انه لم يكن فتحا فى أصله ـ بهدف (الجباية) واستنزاف الثروات لصالح هذه العواصم الإسلامية ، بدليل أن عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الأموى ، عنف عامله على مصر وهو « حيان بن شريح » عندما اشتد على الناس فى هذه الجباية .. وقال له : « لقد بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا » .

كان الفتح أساسا يهدف إلى نشر الدعوة الإسلامية فمن دخل الإسلام أصبح مواطنا فى الأمة الإسلامية .. ومن أراد أن يبقى على دينه يدفع الجزية (مقابل الزكاة عن المسلمين) .. ومقابل الدفاع عنه فى وطنه .. أما القتال .. فكان مقصودا به مجرد (إسقاط النظام الحاكم) الذى (يحول) بين الفتح الإسلامى .. وتوصيل الدعوة الإسلامية للشعوب المحكومة ..

ولعل ـ بعد هذه الوقعة ـ نكون أكثر فهما لتلك العبارة التى وردت فى كتاب محمد صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس حاكم مصر ، أسلم تسلم (تسلم من القتال ، لأن القتال ليس هدفنا) .. « يؤتك الله أجرك مرتين » (أجر إسلامك .. وإسلام شعبك وهذا هو الهدف) .. فان توليت فعليك إثم كل القبط (أى أن رفضك سيكون حائلا بين نشر الإسلام وبين شعبك) .

وهنا ستضطرنا إلى قتالك .. ليس (لفرض) الإسلام عليك أو عليهم ، ولكن لمجرد (عرض) الإسلام على شعبك وبعدها .. فمن شاء فليسلم ومن شاء فليبق على دينه متمتعا بكافة حقوق المواطنة .. والحرية الدينية .

اذن فالهدف مجرد (إسقاط الحاكم) لنشر الدعوة الإسلامية فى البلاد المفتوحة ..

وهذا ما حدث فى مصر فعلا .. فكل ما عرضه عمرو بن العاص على المقوقس وكل القادة العسكريين الرومان .. ثلاثة .. الإسلام .. أو الجزية .. أو القتال لإسقاط

الحكم الروماني .. وبعدها لم يفرض الإسلام على أحد .. فالمقوقس ظل على مسيحيته .. وكذلك كل من أراد من أقباط مصر بدليل : وجود الدين المسيحي .. بتابعيه .. وكنائسه .. وبطارقته .. وأساقفته .. وقساوسته في مصر حتى الآن .. وبعد أكثر من ١٤ قرنا .. من الفتح الإسلامى ، الذى بدأ عام ٦٤٠ .

بعد هذه الوقفة الضرورية .. يمكننا أن ندخل الآن فى التفاصيل ..

التفكير فى مصر وفتحها :

كانت معلومات عرب شبه الجزيرة العربية .. عن مصر قليلة جدا .. وكذلك كانت اهتماماتهم ..

وقد رأينا فى الفصل السابق .. كيف كان عمرو بن العاص نفسه يجهل المسافة بين بيت المقدس ومصر .. أيام الجاهلية .. وكيف أنه قال للشماس القبطى عندما دعاه لزيارة الإسكندرية :

انه لا يعرف شيئا عن الإسكندرية ..

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى نبه أصحابه لمصر .. وفضل مصر .. وشعب مصر القبطى .. خاصة بعد أن ذكر (القرآن الكريم) .. مصر فى أكثر من آية .. ولم يشر الرسول لأى قطر فى العالم .. بمثل هذا (العشق) الذى كان يذكر فيه مصر .. ونراه فى أكثر من حديث .. لا يمتدح مصر فقط .. وإنما يمتدح قبط مصر .. وأخلاق قبط مصر .. ويبشر فى أكثر من حديث بفتحها ..

وهذه الأحاديث رويت مباشرة عن رواه ثقات .. من أمثال أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو ذرٌ الغفارى وأبو هريرة ومسلم ..

فعن عمرو بن العاص عن عمر بن الخطاب قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا فتح الله عليكم مصر .. فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » ، فقال له أبو بكر : « ولم يارسول الله ؟ » قال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة » أى فى صلة دائمة بالله .. إلى يوم القيامة » .

وفى حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم : « إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » .. والرحم هنا إشارة لأم سيدنا إسماعيل ، الجد الأكبر للرسول صلى الله عليه وسلم .. هاجر (المصرية التى تزوجها سيدنا إبراهيم) ..

وفى حديث ثالث عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها (القيراط) ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » .

وفى حديث رابع عن عمر بن الخطاب : « سيفتح عليكم - بعدى - مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لكم منهم ذمة وصهرا » والإشارة هنا إلى مارية القبطية هدية المقوقس وزوجة رسول الله .

وفى حديث خامس قال صلى الله عليه وسلم : « إنكم ستكونون أجنادا ، وإن خير أجنادكم أهل الغرب منكم ، فاتقوا الله فى القبط » .

وفى حديث سادس قال صلى الله عليه وسلم : « الله الله فى قبط مصر ، فإنكم ستظهرون (ستنتصرون) عليهم ، ويكونون لكم عدة ، وأعوانا فى سبيل الله » وقد حدث هذا فعلا أيام (قطز) ضد التتار وأيام صلاح الدين ضد الصليبيين ..

وقد ظلت وصايا الرسول بقبط مصر .. وبشاراته بفتحها حتى فى مرضه الأخير .. حتى وهو يعانى من سكرات الموت .

فعن عبد الملك بن سلمة أنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما مرض وأغمى عليه ثم أفاق قال « استوصوا » بالأدم الجعد » ثم أغمى عليه ثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك ثم أغمى عليه الثالثة وأفاق فقال مثل ذلك » .

فقال من حوله : لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « من الأدم الجعد ؟؟ » فأفاق فى الرابعة فسألوه فقال صلى الله عليه وسلم : أهل مصر أخوال وأصهار .. (أخوال ابراهيم ولده الحبيب .. وصاهرهم سيدنا ابراهيم (بهاجر) .. والرسول نفسه (بمارية) .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم » .. فقالوا : « كيف يكونون أعوانا لنا على ديننا .. قال صلى الله عليه وسلم : يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة (وقد حدث هذا فعلا فقد استعان بهم الولاة المسلمون الأول فى أعمال الجباية والحسبة والعديد من الأعمال الإدارية) .

وفى حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بقبط مصر فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله تعالى » .

كلام العرب عن مصر

ومن أحاديث العرب عن مصر .. وتعظيمهم لها .. ولقبط مصر ما جاء فى كتاب أبى القاسم بن الحاكم (صاحب مخطوط فتح مصر) .. وهو مؤرخ مصرى من أصل قرشى قال :

حدثنا عثمان بن صالح فقال : صاهر أهل مصر من الأنبياء عليهم السلام ثلاثة : إبراهيم الخليل (تزوج هاجر) ويوسف عليه السلام تزوج بنت صاحب عين شمس ومحمد صلى الله عليه وسلم تزوج بمارية .

وقال عبد الله بن عمر : قبط مصر أكرم الأعاجم (الأجانب كلهم) ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة ، ومن أراد أن يذكر الفردوس فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها ..

وقال كعب الأحبار : « من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا اخرفت (أزهرت) ، وكان فيها السحرة (سحرة فرعون) فآمنوا جميعا فى ساعة واحدة ، ولا نعلم جماعة أسلمت فى ساعة واحدة من جماعة القبط .. فكانوا من أصحاب موسى صلوات الله عليه ، ولم يفتتن منهم أحد مع من افتتن من بنى إسرائيل فى عبادة العجل » ..

ويتحدث عبد الله بن صالح عن مصر فيقول : « على قنواتها قناطر وجسور بتقدير وتدبير ، حتى إن الماء يجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحسبونه (بدقة) كيف شاءوا ، ويرسلونه كيف شاءوا ، فذلك قول الله عز وجل فيما حكى من قول فرعون : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » .

وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله إلى آخره على الجانبين ما بين أسوان ورشيد .. من خلال سبعة خلج : خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج النهى وخليج سردوس .. وكانت جميع أرض مصر تروى من خلال ستة عشر وزاعا .

ويروى عبد الله بن عمرو بن العاص أن فرعون استعمل هامان على حفر خليج (سردوس) فلما ابتدأ حفره أتاه أهل كل قرية يطلبون منه أن يمر هذا الخليج إلى قريتهم .. فكان يمضى بحفر الخليج ويلوى مسيرته هنا وهناك .. ويأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له قرابة مائة ألف دينار .. فحمله إلى فرعون ولما سأله عن

مصدر المال أخبره .. فقال له فرعون : ويحك إنه ينبغى (للسيد) أن يعطف على (عباده) ويفيض عليهم ولا يرغب فيما بين أيديهم ، ثم صرخ فيه : ارجع ورد على أهل كل قرية ما أخذت منهم .. فرده كله إلى أهله .

وفى روايات جزيرة العرب عن المقوقس .. أن امرأته كانت تملك حديقة كرم (عنب) أمام بحر فى الإسكندرية وكانت تأخذ خراجها من القائمين عليها خمرا .. وعندما كثر الخمر ضاقت به فقالت : لا حاجة لى فى الخمر ، اعطونى دنانير ، فقالوا : ليس عندنا ، فأرسلت عليهم ماء الجيزة فأغرقت الحديقة فصارت بحيرة تصاد فيها الحيتان ، ولعلها بحيرة مريوط .

هذا ما جاء على لسان العرب .. والقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم عن مصر .. أما الرجل الذى أعدته الأقدار لفتح مصر (عمرو بن العاص) فكان - فى الجاهلية - مجرد أعرابى يرعى البعير - ولم يكن يدرى أبعد من ذلك خارج جزيرته العربية ولا الشام شيئا .. حتى كانت زيارته الغريبة مع الشماس القبطى .. لمصر والإسكندرية أيام الجاهلية ..

ولم تترك الصور المبهرة التى رآها عمرو فى (جنة مصر) خياله .. كما ظلت الإسكندرية بعماراتها .. وشوارعها .. وقصورها .. وأهلها .. وملوكها .. وأشرافها .. راسخة فى ذهنه .. ولذلك كان أول من ألح على عمر بن الخطاب بعد الإسلام .. لفتح مصر .. وتجمع الكثير من الروايات أنه ألح أكثر من مرة على عمر بن الخطاب .. بذلك وكان عمر يرفض فى كل مرة .. حتى قدم عمر الشام فى السنة الثامنة عشرة من الهجرة فى بلدة يطلق عليها « الجابية » فذهب اليه عمرو بن العاص وقال :

- يأمير المؤمنين ائذن لى أن أسير إلى مصر فإنك إن فتحتها كانت قوة « للمسلمين » (أى « لأمة المسلمين » ولم يقل قوة لمكة أو لنا) وعونا لهم ، وهى أكثر الأرض خيرا وأعجزها عن القتال والحرب (كان قد علم ذلك من زيارته للإسكندرية ومعرفته بالصراع الدائر بين القوة الرومانية وقبط مصر) .

ولكن عمر استمر على تخوفه .. وتردده لتكليف عمرو بفتح مصر .. قيل إنه لم يكن يثق فى (ابن العاص) .. حيث لم يكن من قادة المسلمين العظام أمثال خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص ، ولكن عمرا ظل يلح عليه حتى وافق أخيرا .. وعقد له الراية على ثلاثة آلاف جندى وقال له :

- سر وأنا مستخير الله فى مسيرك ، وسيأتيك كتابى سريعا (خلال مسيرتك إلى مصر) ، فان أتاك كتابى قبل أن تدخل مصر آمرا لك بالعودة ، فعد ، وإن كنت قد

دخلتها أو شيئا من أرضها بعد وصول كتابى فامض لوجهك واستعن بالله .. وسأوافيك بمدد » .

فتقدم عمرو إلى ما بعد رفح .. ووصله كتاب عمر يأمره بالعودة لانه غير مستريح لفتح مصر الآن .. ولكن عمرو بن العاص سأل من حوله بعد أن وصل إليه كتاب الخليفة .. عن المكان الذى حلت فيه جيوشه ، فأجمع من حوله على أنها أرض مصر .. فما كان منه إلا أن قال « المساء عيد » .. ورابط فى نفس الموقع وسمى هذا المكان ـ بعد التحريف ـ (المساعيد) .. وهى بلدة ما بين العريش ورفح يعرفها كل زوار شمال سيناء الآن .

ويرى الدكتور حسين مؤنس .. أن هذا الكلام فيه شيء من الخيال والسذاجة لا تتفق مع طبيعة عمر بن الخطاب .. التى لا تعرف بالتردد .. وكل ما هناك أن عمر لم يكن رأيه قد استقر على فتح مصر .. ولم يكن يطمئن كثيرا لعمرو بن العاص كقائد عسكرى .. ولم يكن يستريح له .. فتردد عمر ـ اذن ـ لم يكن فى الفتح نفسه بقدر ما كان فى شخصية الفاتح وربما كان موضوع الخطاب الذى قيل فيه أنه سيرسله له .. هو لاختيار قائد غيره ..

بدليل أن عمر طلب من الزبير بن العوام قائد (حملة المدد) أن يقود عملية الفتح .. ولكن الزبير رفض أن يأخذ القيادة من عمرو وقال للخليفة :

ـ سأذهب إليه بهذا المدد (٤٠٠٠ جندى) .. فان رأيته منتصرا سأنتحى جانبا بفرقتى .. وإن رأيته فى حاجة لمعونة .. خضت المعارك ـ تحت قيادته ـ كجندى مجاهد فى سبيل الله ..

بداية العمليات العسكرية

من رفح إلى بلبيس :

مضت حملة عمرو بن العاص من رفح إلى بلبيس عبر صحارى وفيافى وسط مناطق يسكنها ويسيطر عليها عرب سيناء والشرقية وليس فيها للبيزنطيين (الرومان المحتلين) سوى حاميات ضعيفة ونادرة ، كان أهمها حامية العريش ـ وهو تعريب لاسمها القديم (لاريس) .. وكان البيزنطيون يسمونها (رينوكوروا) فاستولى عليها جيش المسلمين فى (١٠ ذى الحجة عام ١٨ للهجرة ١٢ ديسمبر عام ٦٣٩ للميلاد) ، ثم تقدم عمرو بن العاص حتى وصل إلى الفرما .. وكانت تمثل (أقصى

حصون مصر شرقا) وهناك وقع أول التحام فعلى بين المسلمين وإحدى حاميات الروم .. واستمر القتال بينهم شهرا حتى اقتحمه المسلمون فى (١٣ يناير عام ٦٤٠) .. وبعد ذلك أصبح الطريق بينهم وبين قلب الدلتا مفتوحا .

ويقال إن أصحاب عمرو بن العاص عندما كانوا يستريحون فى الفرما سمعوا أناسا من القبط كانوا يرعون الغنم .. وسمعوهم يتحدثون عن غزو المسلمين وكيف أنهم يغلبون الروم ، رغم قلة عددهم ونحافة أجسامهم ، فقال رجل منهم : « إن هؤلاء لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا خير رجل منهم ، فلما سمع أصحاب عمرو هذا الكلام أمسكوا بتلابيب الرجل وقادوه إلى قائدهم عمرو ، وأعاد ما قاله على عمرو » فلم يصدقه .. حتى جاءه ـ بعد ذلك ـ نبأ مقتل عمر بن الخطاب .. فتذكر كلام الرجل القبطى .. وقال .. ولكن قتله مجوسى .. وعندما قتل عثمان بن عفان من العرب قال : الآن صدق القبطى ..

المهم .. واصل عمرو المسيرة بجيشه إلى الدلتا .. ولحق بجيشه العديد من قبائل الأعراب على طول الطريق إلى بلبيس .. مما أحدث رد فعل هائل فى مصر .. فانتقل المقوقس من عاصمته بالإسكندرية إلى الفسطاط قرب حصن بابليون .. وخرج الأنبا بنيامين من منفاه السرى حيث كان هاربا من اضطهاد « هرقل » والأسقف كيروس الرومانى ، وكتب إلى قبط مصر يقول :
ـ إنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم انقطع ، ويأمر أقباط مصر باستقبال عمرو ، ويقال إن القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذ أعوانا لعمرو .

وهكذا حدد الأقباط (المضطهدون من قبل المحتل الرومانى) موقفهم منذ البداية من الفتح الاسلامى بعد سقوط الفرما واكتشافهم أن الصراع الحاسم على مصير بلدهم قد بدأ فمالوا مع العرب ضد الروم ..

وكان هذا من العوامل الهامة فى « تيسير » أمر فتح مصر على المسلمين ولكن يجب أن نؤكد أن هذا التعاون لم يصبح علنا بعد سقوط الفرما .. بل بعد سقوط (حصن بابليون) وفتح الفيوم . كما يقول المؤرخ يوحنا النقيوسى .

أما موقفهم قبل ذلك .. فكان موقفا محايدا .. يتمنى النصر للعرب وزوال أمر الروم ، وهو يشابه ـ إلى حد ما مع فارق الاختلاف الزمنى والعقيدى ـ تمنى بعض المصريين النصر للألمان على الإنجليز .. عندما اقتحم روميل حدود مصر الغربية إلى العلمين .. وذلك من خلال ذلك الإحساس الفطرى الطبيعى أن (عدو عدوى يمكن أن يكون حليفى) ..

وقبل أن يتوجه عمرو بن العاص إلى الدلتا قاصدا بلبيس .. لم يستطع أن يترك قوة كبيرة فى الفرما ـ لقلة من معه ـ ولما كان موقعها هاما من الناحية العسكرية ـ لانها مفتاح مصر من الشرق وخاف أن يعود الروم ليتحصنوا بها فقد قام بهدم أسوارها حتى لا يتحصن بها الرومان ، ثم تقدم إلى الجنوب الشرقى إلى بلدة صغيرة تسمى « النواصر » ، ومكانها الآن قرية الجعافرة ، مركز فاقوس بمحافظة الشرقية ..

ثم وصل إلى بلبيس .. وفى بلبيس لم يكن بها سوى حامية رومية صغيرة قاتلها رجاله نحو شهر حتى انتصروا عليهم وتم الاستيلاء على البلد .

ويذهب الرواة إلى أن عمرا عثر هناك على « أرمانوسة » ابنة (مقوقس مصر) فأكرمها وبعث بها إلى أبيها معززة مكرمة ..

ويقول الدكتور حسين مؤنس فى كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » .. إن الرواة اختلفوا حول قصة أرمانوسة .. وذهبوا بأنها قصة خيالية .. لأن المقوقس كان أسقفا .. فلا يمكن أن تكون له بنت ، وهى حجة ضعيفة ، لأن قوانين النصرانية آنذاك لم تكن تحرم زواج رجال الدين ، فالتحريم كان بدعة ابتدعها البابوات فيما بعد .. ومثل ذلك يقال أيضا عن نفى بعض المستشرقين لإهداء المقوقس جاريتين للرسول صلى الله عليه وسلم .. على أساس أن رجال الدين المسيحيين كان محرما عليهم أن يمتلكوا جوارى ..

وهذه كلها دعاوى متزمتة ، فالمسيحية الأولى لم تحرم اتخاذ الجوارى وإنما جاء ذلك فى زمن متأخر ، على يد البابوات أيضا ، ويؤيد صحة قصة أرمانوسة ما ظهر من القبط للميل إلى الغزو العربى لانقاذهم .. بعد الاستيلاء على الفرما .. فأحب عمرو أن يجامل زعيمهم باكرام ابنته ..

المعركة الحاسمة مع الرومان :

واتجه عمرو بن العاص بعد ذلك .. إلى مركز القوة الفعلية للرومان إلى حصن بابليون .. ولم يكن هذا المركز مجرد حصن كما يتخيل الذين درسوا حصار بابليون فى المدارس ، وإنما كان هذا المركز مساحة كبرى تمتد من موقع (عين شمس الحالى إلى القصر المعروف باسم قصر الشمع) .. وكانت هذه المساحة ـ على غير ما يعتقد الكثيرون ـ تضم عددا كبيرا من القرى الصغيرة والحصون والأديرة والكنائس ولاتساع نطاقها كان يطلق عليها اسم (مصر) .. وهو لفظ أرامى يعنى الحدود .. أما اسم أراضى مصر فكان يطلق عليها لفظ (شمسى) أو (كيمى) ومعناها التربة الحمراء .. والعرب هم الذين وسعوا مفهوم لفظ مصر وأطلقوه على البلاد كلها .

إذن فحصن بابليون - الذى اتجه اليه عمرو بن العاص - كان بمثابة مدينة عسكرية كاملة .. بحصونه وقراه وخيامه ومنازله وبساتينه .. وهو بقايا مدن وعواصم قديمة انشئت على طول تاريخ مصر الفرعونى وتضمها كلها الآن مدينة القاهرة - فيما عدا ممفيس القديمة - فهى تقع الآن فى محافظة الجيزة ..

وموقع حصن بابليون كان « الموقع المثالى » الذى اتخذه حكام مصر منذ (مينا موحد القطرين) .. وحتى الآن لتمكنه من الإشراف على مقاطعات الوجهين البحرى والقبلى .. وقد بدأ انشاء هذه المدينة التى تتوسط مصر منذ أن أقام الفراعنة (منف) واتخذوها عاصمة لهم .. وعلى الضفة الشرقية للنيل أمام منف أقام الفراعنة بلدة (أون) .. التى عربها العرب إلى عين شمس التى نعرفها حاليا .. ثم إلى جنوب عين شمس - فى مواجهة جزيرة الروضة - أقيم حصن بابليون الذى اقتربت منه جيوش عمرو ابن العاص .. منذ ثمانية قرون .

وصل عمرو إلى أول قرية فى منطقة (حصن بابليون) .. واسمها قرية (دنين) وقد أطلق عليها المؤرخ يوحنا النقيوسى اسم (تندونياس) .. ومكانها اليوم - مسجد أولاد عنان بباب الحديد - وكان بالقرية حامية صغيرة .. تغلب الجيش العربى عليها دون صعوبة كبيرة ، وبهذا أصبح فى أيديهم موقع منيع على النيل فحصنه عمرو .. وترسه بالرجال و .. اتجه فى النهاية إلى حصن بابليون ..

وكان الحصن ذاته مركزا يضم عددا كبيرا من أفراد الجيش البيزنطى وكبار قادته وبعض الأقباط الذين يعيشون حول الحصن فى القرى والبساتين المحيطة .. ومن خلال سرايا استطلاع أولية بدأ عمرو يهاجم القوى المختبئة داخله ولما تعذر عليه هزيمتها .. بعث يطلب المدد المتفق عليه من الخليفة عمر بن الخطاب .

واكتفى بالتحصن فى (أم دنين) .. مع استمرار الالتحام المستمر مع البيزنطيين - لمجرد التمويه من خلال اشتباكات « تكتيكية » ومحسوبة .. كسبا للوقت حتى يصله المدد .. كما كان يبعث السرايا الأخرى .. فى قوارب فى النيل .. على الشاطىء الغربى .. للحصول على بعض التموين والغذاء لأفراد جيشه .. ورأى عمرو ألا يظل هكذا مكانه فى « أم دنين » حتى يصل المدد .. فتقدم بمن معه نحو حصن بابليون وبدأ فى حصاره وكان الروم قد حفروا خندقا عظيماً حول الحصن واستعدوا استعدادا طيبا .

وأسرع المقوقس إلى بابليون ليكون على مقربة من الأحداث وبدأ الحصار فى مايو عام ٦٤٠ م .. ولقى المسلمون عناء شديدا ، خاصة بعد أن اكتشف الروم قلة عددهم

حتى قال ابن عبد الحكم : « ولما تبين لعمرو ذلك أخذ يفرق أصحابه حول الحصن ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، فلما انتهى حفر الخندق ناداه الرومان أن قد رأينا ما صنعت وإنما معك من أصحابك كذا وكذا ، فلم يخطئوا برجل واحد » !! .

ورغم هذا الضيق .. فقد كانت معنويات جنود عمرو فى القمة .. فقد جاءوا للجهاد بل من أجل ما هو أكثر من هذا .. « الاستشهاد » ..

ويروى عيسى بن حماد » .. فى كتاب « فتوح مصر » فيقول لما حاصر العرب حصن بابليون كان عبادة بن الصامت الصحابى الجليل يصلى وفرسه عنده فرآه قوم من الروم فخرجوا إليه وعليهم حلية وبزة (بدلة فاخرة) فلما دنوا منه سلم من صلاته ، ووثب على فرسه ثم حمل عليهم ، فلما رأوه هاجما عليهم بفرسه ولوا هاربين .. فتبعهم وجعلوا يلقون مناطقهم - أحزمتهم - ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن اللحاق بهم .. وهو ماض فى ركابهم حتى دخلوا الحصن لاهثين ، ورموا عبادة من فوق الحصن بالحجارة ، فرجع لا يلوى على شىء ولا يلتفت إلى ما كانوا طرحوه من متاعهم الثمين .. حتى وصل إلى موضعه فعاد يصلى وخرج الروم ليجمعوا ما سقط منهم خلال الفرار .. ودهشوا لهذا الرجل الأسمر اللون .. الذى عاد إلى الصلاة .. ولم يحاول أن يلتقط ما وقع منهم من نفائس خلال المطاردة .. « كانت المسافة شاسعة بين رجل جاء يبحث عن رضاء الله .. ورجال كل همهم الدنيا .. وزينة الدنيا .

وعجل عمر بإرسال المدد .. وحاول عمر بن الخطاب أن يجعل قيادة جيش الفتح لهذا الصحابى الجليل الزبير بن العوام فرفض وقال لعمر : « بل أخرج مجاهدا ومعاونا ، فان وجدت عمرًا قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت بعض السواحل فرابطت به ، وان وجدته فى جهاد كنت معه .. فسار على ذلك ..

وتراوح عدد المدد فى روايات المؤرخين .. بين أربعة آلاف واثنى عشر ألفا .. ولكن المؤكد أنه كان على رأس هذا الجيش أربعة من خيرة الصحابة ، والقادة الاشداء الذين كان لهم صولاتهم فى غزوات العراق والشام . وهم : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو والأسود ومسلمة بن مخلد ، وقد وصل هذا المدد فى ٦ يونيو عام ٦٤٠ وبوصول هذا المدد بدات المعركة تأخذ دورها الحاسم فى البداية ، وقبل اقتحام الحصن رأى عمرو أن يفصل بين الروم والأقباط ، فاتصل برجلين منهما - أبو مريم رئيس رجال الدين الأقباط والأسقف مريام .. وكان له مكانة بينهم - وكلمهما كلاما رقيقا ذكر فيه وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لأقباط مصر .. وكان لكلامه أثر كبير فى قلوبهما .. فعادا وأخبرا المقوقس للاستشارة .. وعندما علم رجال الحامية بذلك أنكروه وأصروا على القتال ..

مهلة خمسة أيام :

وكان عمرو قد أعطى ممثلى القبط خمسة أيام للرد عليه ، وبينما هو ينتظر فاجأه الروم بالهجوم فقاتلهم قتالا شديدا حتى ردهم إلى الحصن ..

وأدرك عمرو أن الحامية مادامت محتمية بالحصن .. فإن الحصار سيطول .. فوضع خطة لاستدراج الحامية إلى الخارج .. ليدخل معهم في معركة وجها لوجه لحسم الموقف ، فأرسل كتيبة اختبأت وراء جبل الدراسة الآن .. وأخرى ناحية المقطم .. وخرج عساكر الروم من الحصن كعادتهم فى الصباح فأطبقت عليهم الكتيبتان من الأمام ومن المؤخرة .. فى معركة مكانها العباسية الآن ، واشتد سعير القتال .. فانهزموا .. وأسرع من بقى منهم يحتمى - مرة أخرى - بالحصن .

كانت المعركة فى ١٥ يوليو ٦٤٠ ميلادية .. استشهد فيها نحو أربعمائة من المسلمين دفنوا بمقبرة واحدة عرفت بمقبرة الشهداء .. بموضع يعرف الآن (بمجرى الحصى) قرب رباط الأمير مسعود ..

وبدأ عمرو بعد ذلك .. الاستعداد لاقتحام الحصن .. وكانت المحاولات الأولى بنشر كتائب المنجنيق .. ولكنها لم تأت بنتيجة .. فلم تكن محكمة الصنع أو الوضع .

وهنا تقدم لعمرو .. الزبير بن العوام .. الذى أرسله عمر لقيادة جيش الفتح بدلا منه ، وأبى إلا أن يكون جنديا تحت قيادة ابن العاص ، وقال فى أدب (لقائده عمرو) :

- « إنى أهب نفسى لله ، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ، فقام ووضع سلما على جدار الحصن من ناحية سوق الحمام ، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيراً أن يجيبوه جميعا .. فما هى إلا لحظات حتى كان الزبير قد صعد بسيفه على رأس الحصن .. يكبر .. فتبعه جنود كثيرون وخاف عمرو انكسار السلم .. فلما تحرك الزبير نحو الحصن ومن معه اعتقد أهل الحصن أن العرب اقتحموه فهرب معظمهم .. فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه ، واقتحم آلاف من المسلمين الحصن ..

فلما رأى المقوقس ومن معه أن الموقف يتطور فى غير صالح أصحابه المحاصرين .. بعث إلى عمرو بن العاص يطلب الصلح .. فرد عليه عمرو بن العاص مع رسل المقوقس أنه ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال ، إما إن دخلتم فى الاسلام فكنتم إخواننا لكم ما لنا وإن ابيتم فالجزية ، وإما جاهدناكم بالقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ..

فلما جاء الرسل للمقوقس .. سألهم كيف رأيتم المسلمين .. قالوا : « **رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليه من الرفعة .. ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة .. جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون فى صلاتهم** » .

وعند ذلك قال المقوقس : « والذى يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم .. إذا كانوا فى وضع أفضل » .

الصحابى الأسود .. والمقوقس :

ثم رد المقوقس رسله إلى عمرو بن العاص يطلب إرسال مبعوثين عن المسلمين للتفاوض .. فبعث عمرو بن العاص عشرة مجاهدين على رأسهم الصحابى الجليل (عبادة بن الصامت) الذى حضر مع الرسول غزوة بدر .. وأوكل اليه مهمة التكلم .. وأمره ألا يقبل فى النهاية سوى إحدى ثلاث خصال : الاسلام .. الجزية .. القتال وكان عبادة بن الصامت أسود .. فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه .. تقدم عبادة ابن الصامت فهابه المقوقس لسواده وقال :

- نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره ليكلمنى ..

فقالوا له : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

قال المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟.. قالوا : كلا ، وإنه وإن كان أسود - كما ترى - فإنه من أعظمنا موضعا ، وأفضلنا سابقة فى الإسلام ، وأفضلنا عقلاً ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة بن الصامت : تقدم ياأسود وكلمنى برفق فإننى أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك على ازددت لذلك هيبة ..

فتقدم إليه عبادة فقال : « لقد سمعت مقالتك وأن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود ، وكلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا ، لو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لى ، وأنا قد وليت وقد أدبر شبابى .. وإنى مع ذلك - بحمد الله - ما أهاب مائة رجل من

عدوى ، لو استقبلونى جميعا ، وكذلك أصحابى ، وذلك أن كل همنا ورغبتنا الجهاد فى سبيل الله ونيل رضوانه ، وليس غزونا ـ اعداءنا ممن يحاربون الله ـ لرغبة فى دنيا .. ولا طلبا للاستكثار منها .. رغم أن الله أحل لنا ذلك .. وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشلمة (جلباب) يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه .. وان كان له قنطار من ذهب انفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا الذى فى يده .

ذلك أن نعيم الدنيا ـ عندنا ـ ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء .. إنما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك به جوعته ويستر به عورته .. وتكون همته وشغله فى رضاء ربه وجهاد عدوه ..

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط .. لقد هبت منظره وإن كلامه عندى لأهيب من منظره .. إن هذا وأصحابه أخرجهم الله « لخراب » الأرض ، ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها ..

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال : « أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم (انتصرتم) على ما ظهرتم إلا لحب اعدائكم الدنيا وهوانها عليكم ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده ، قوم معروفون بالقسوة ، ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل ، وإنا لنعلم انكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم ، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم .. ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم .. وقلة ما بأيديكم ..

ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألفا فتقبضوها وتنصرفوا إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قبل لكم به ..

فقال عبادة بن الصامت : « ياهذا ، لا تغرن نفسك ولا أصحابك .. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به .. ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه ، إن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم .. وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا أقدمنا عليهم فقتلنا عن آخرنا .. فهذا أمكن لنا فى أبواب جناته ورضوانه ، وما من شىء أقر لأعيننا

ولا أحب إلينا من ذلك .. وأنا منكم ـ حينئذ ـ لعلى إحدى الحسنيين .. فإما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن انتصرنا عليكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ..

وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة أولا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده .. وأن همنا ما أمامنا ..

وأما قولك إنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا .. فنحن فى أوسع السعة ـ ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه ، فانظر الذى تريد فبينه لنا ، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها الا خصلة من ثلاث .. فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل ، بذلك أمرنى الأمير وبها أمر أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا ..

أما إن أجبتم إلى الاسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره .. وهو دين انبيائه ورسله وملائكته فان لكم ما لنا وعليكم ما علينا .. وكنتم أخوة لنا فى دين الله ..

فإن أبيتم فأدوا الينا الجزية ، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبدا ما بقينا وما بقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم أو عرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم . ونقوم بذلك عنكم مادمتم فى ذمتنا وكان لكم عهد علينا ..

وإن أبيتم فليس بيننا سوى القتال ، حتى نموت عن آخرنا .. أو نصيب ما نريد منكم ..

فقال له المقوقس: أفلا تجيبوننا خصلة غير هذه الثلاث ، فرفع عبادة بن الصامت يديه فقال : لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء .. فاختاروا ..

فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه فقال : قد فرغ القوم ، فما ترون .. فاختاروا لأنفسكم ..

ورفض الرومان عرض ابن الصامت ..

وعندئذ قال المقوقس لابن الصامت : راجع صاحبك ..

وعندما قام عبادة وأصحابه قال المقوقس لمن حوله : أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث .. وأنا لا أرضى بكم الدخول فى دينهم .. ولا قتالهم ، فلعمرى لن تقووا عليهم .. وإذن فهى الثالثة دفع الجزية ، وتكونون آمنين فى بلادكم ، آمنين

على أنفسكم ودينكم وأموالكم وذراريكم ، فهذا خير من أن تموتوا عن آخركم ..

قال الرومان : الموت أهون علينا ..

وأمروا بقطع الجسر .. وأصبحوا محاطين فى الحصن من جميع الجهات ، وواصل الآف المسلمين اقتحام الحصن من كل جانب حتى ظفروا بهم .. فقتل من الرومان من قتل .. وأسر من أسر ..

وصاح المقوقس بالباقين منهم .. ألم أقل لكم أطيعونى قبل أن تندموا .. فلما رأى الرومان المسلمين قد أحاطوا بهم من كل جانب .. وقال لهم المقوقس ما قال ، أذعنوا للجزية ..

فبعث المقوقس إلى عمرو بن العاص لإجراء محادثات بين الطرفين للتوصل الى اتفاق نهائى ، عرف فى التاريخ باسم « معاهدة بابليون » .. وكان ذلك بعد سقوط آخر معاقل الحصن فى أيدى المسلمين ، فى آخر شعبان ١٩ هـ الموافق أغسطس ٦٤٠م .. وأصبح منذ ذلك الحين حصنا إسلاميا .

وكان أهم نصوص المعاهدة التى عقدت بين عمرو بن العاص وأقباط مصر .. بقيادة المقوقس ..

بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على نفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم .

من دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم ..

ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يخرج من مصر ..

عليهم ما جنى لصوصهم (أى على أهل مصر حفظ الأمن فى نواحيهم) .

على أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح .

على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله .

ويلاحظ من نصوص هذه المعاهدة أنها أولا مؤقتة .. وأنها خاصة بقبط مصر .. ولم يكن المقوقس يمثل فيها سوى أهل مصر من القبط ، الذين خضعوا حتى فتح حصن بابليون للمسلمين .. ولم يكن يمثل إمبراطور البيزنطيين .. لان عمرا باقتحام الحصن لم يكن قد تم له فتح مصر كلها .. ولا نزعها من سيطرة الروم ..

فقد كان أمامه مشوار آخر فى ريف مصر .. والفيوم والإسكندرية .. حتى يحقق تحريرها التام من الرومان ، وإدخالها تحت راية الأمة الإسلامية .

الفصل الرابع

تحرير مصر من الرومان



كان فتح حصن بابليون .. مجرد إجهاض لأهم قوة مركزية فى مصر .. عسكريا ، ولكن مصر كلها لم تكن قد فتحت بعد « بالمفهوم السياسى » .. فالعاصمة الإسكندرية لم تكن قد سقطت بعد .. كما أن الرومان لم يتركوا الإسكندرية بعد سقوط بابليون .. واستعدوا لملاقاة عمرو بن العاص فى الإسكندرية خاصة أن « هرقل » إمبراطور الرومان ، كان قد استنكر تماما صلح المقوقس مع عمرو بن العاص .. ولذلك اعتبر هذا الصلح مجرد اتفاق بين المقوقس وقبط مصر ، الذين كانوا فى بابليون .. وبين القوة الاسلامية الفاتحة بقيادة عمرو بن العاص ..

وقد تم الاتفاق بين الطرفين على الجزية .. بواقع دينارين على كل مواطن مصرى .. ولما كان عدد قبط مصر ٦ ملايين فى ذلك الوقت .. قد تمثلت الجزية فى ١٢ مليون دينار ..

وقال المقوقس .. للروم .. من وافق على هذا .. كان على الروم مثل ما على مواطن بنى مصر سواء هنا (بابليون وما حولها) أو الإسكندرية .. ومن رفض فعليه أن يبحر آمنا من مصر إلى أرض الروم .

وكما ذكرت رفض هرقل الإمبراطور الرومانى اتفاق المقوقس مع عمرو ، وبعث إليه يعنفه قائلاً :

ـ « إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى ، فإن كان القبط كرهوا القتال .. واختاروا الوقوف مع العرب علينا ، فإنه عندك فى الإسكندرية من الروم أكثر من مائة ألف ، معهم العدة والقوة ، والعرب على حالهم وضعفهم ما قد رأيت ، ورغم ذلك فقد عجزت .. وأردت أن تكون أنت ومن معك من الروم كالقبط رافضين للقتال .. فواصل القتال إلى أن تموت أو تظهر على العرب ..

وختم هرقل كتابه للمقوقس قائلا عن العرب :

ـ « إنهم فيكم بكثرتكم وقوتكم ، وبقدر قلتهم وضعفهم « كأكلة » فواصل القتال .. وليس لى رأى غير ذلك » ..

وكتب بمثل ذلك إلى جماعة الروم فى الإسكندرية .. فأخذوا يستعدون لملاقاة عمرو ..

فقال المقوقس : « والله إنهم على قلتهم وضعفهم لأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، ذلك أنهم قوم .. الموت أحب لهم من الحياة .. ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة

ولذتها .. واعلموا معشر الروم .. أنني لن أغير اتفاقى مع العرب وإنى أرى مالم يره ملك الروم .. أما يرضى أحدكم أن يأمن على دهره ودينه وماله ونفسه مقابل دينارين فى السنة .. فاذا أحب دخول الإسلام باختياره .. فمقابل (الجزية) الزكاة ..

ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص ، فقال له : إن هرقل ملك الروم قد كره ما فعلت .. وعجزنى ، وكتب إلى وإلى جماعة الروم رفض مصالحتك وأمرهم بالقتال ..

ولم أكن لأرجع عما (عاقدتك) عليه .. وسلطانى على نفسي .. ومن أطاعنى من القبط ، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولن ينقضوه وأما الروم فأنا منهم برىء .. وأنا أطلب منك ثلاث خصال :

فقال عمرو : وما هى ؟

قال المقوقس :

- ألا تنقض عهدك مع القبط وأدخلنى معهم .
- إن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم .. فلا تصالحهم .. وقاتلهم حتى تفرض عليهم شروطك .
- إن مت فمرهم أن يدفنونى فى « أبى يحنس » بالإسكندرية ، فأجابه عمرو إلى ذلك .. وأمر أن « يضمنوا له ولأتباعه من الأقباط الجسرين جميعا (شطى النيل) .. ويقيموا لهم (الأنزال) المنازل ما بين الفسطاط والإسكندرية .

جيوب بحرى والصعيد :

وقبل أن يتوجه عمرو إلى الإسكندرية .. ليتم له فتح مصر كلها - حيث بقى هناك آخر (معقل رئيسى) للروم - رأى عمرو أن يبعث أولا بسرايا إلى الوجهين البحرى والقبلى .. فذهبت حملات إلى عين شمس (وتنيس) ودمياط وتونة (التى اندثرت اليوم ومكانها جزيرة ببحيرة المنزلة تسمى كوم (ابن سلام) شرقى مطرية المنزلة ..

ثم توجهت هذه الحملات إلى دميره (حاليا قرية بمركز طلخا) وشطا (من ضواحى دمياط) ودقهلة وبوصير (اليوم أبو صير مركز سمنود) ، والبشرودات .. (إقليم كان بشمالى الدلتا حول بحيرة البرلس) ثم .. إلى (الفيوم) ..

ويبدو أن فتح الفيوم كلها لم يتم .. إلا بعد إرسال هذه الحملات بأيام (أى بعد فتح الإسكندرية) .. لأن المسلمين خلال الحملات (الخاصة بفتح قرى وجه بحرى

وقبلى) لم يصلوا حقيقة إلا إلى قرية متطرفة شمال الفيوم اسمها « بهنس » (وقد زالت اليوم وبقى اسمها فقط على حوض يسمى المهمسا بناحية قلمشاه بالفيوم) ..

أما الفيوم ذاتها فقد أقام جند عمرو حولها سنة لا يعلمون عن مكانها شيئا ، حتى أتاهم رجال فأخبروهم عن مكانها .. فساروا على رأس قوة بقيادة عمرو بن أبى ربيعة حتى ظهر لهم سواد أرض الفيوم ودخلوها دون قتال .

وذهبت حملات أخرى إلى ريف مصر .. وصعيده .. ففتحوا الأشمونيين وأخميم وغيرها من بلاد الصعيد .. وكان أهل وجه بحرى وقبلى يصالحون عمرو على شروط « صلح عمرو التى عقدها المقوقس » . ويقول « البلاذرى » فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر ، فصارت أرضها خراجا ، فزادت مقادير الجباية مما جعل عمرا يقرر النظر فى أمرها جملة .. وأجل ذلك لما بعد فتح الإسكندرية ..

التوجه للإسكندرية :

كان « بنيامين » بطريرك القبط الشرعى .. الذى هرب من اضطهاد بطريرك بيزنطة من الإسكندرية إلى إحدى قرى الصعيد .. قد أصدر تعليماته ـ بعد سقوط بابليون وقرى ريف مصر ـ إلى أقباط مصر .. بمساعدة عمرو على قهر الروم الطغاة ، الذين أذاقوا أقباط مصر ألوانا من العذاب والآلام ، بسبب مخالفة الكنيسة القبطية لمذهب الكنيسة البيزنطية ..

وقد صدر هذا الأمر إلى كل أقباط مصر .. وجميع رهبان أديرة الصعيد والنطرون .. وعندما توجه عمرو إلى الإسكندرية لتحريرها من الروم .. بعد رفض هرقل .. شروط الصلح التى رضى بها المقوقس وأقباط مصر .. كانت تعليمات البطريرك بنيامين قد وصلت إلى جميع أقباط مصر .. عدا الذين كانوا تحت سيطرة الروم فى الأسكندرية ..

وهكذا ـ وللمرة الأولى ـ وقف القبط (علناً) إلى جانب العرب وبشكل صريح .

ويقول ابن عبد الحكم صاحب مخطوط فتح مصر : « عندما توجه عمرو إلى الإسكندرية من الفسطاط صاحبه رؤساء القبط .. وكانوا ـ أى هؤلاء القبط ـ يقيمون لجيشه ـ فى الطريق ـ جسور العبور والأسواق ..

وهكذا صار القبط لهم أعوانا ، فاستعدت قوات الروم واستجاشت (أى أعلنت حالة الطوارىء بين قواتها) ، وقدمت عليهم مراكب حربية كبيرة من بيزنطة ، على متنها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح ، ولكن المسلمين لم يقابلوا فى طريقهم أحدًا

من الروم إلا عند ترنوط (حاليا بلدة الطرانة مركز كوم حمادة مديرية البحيرة) ..

وكانت بها فرضه (جسر) تعبر مياه النيل عندها إلى الإسكندرية ، وقد التقى المسلمون فيها بحامية رومية صغيرة .. انهزمت أمامهم بعد ثلاثة أيام .

ثم نزل عمرو بـ « نقيوس » وكان بها حامية رومية يقودها قائد يسمى « دمنتيانوس » تحت إمرته سفن كثيرة في النيل ، فلما رأى العرب دب فى قلبه رعب غريب وترك معداته وسفنه دون قتال ، فأرسل عمرو فى إثره سرية يقودها « شريك بن سمى » فأدركهم عند « كوم شريك » (مركز كوم حمادة - بحيرة) .. وكانوا أكثر من المسلمين عددا .. حاصرهم الرومان ، فأرسل شريك يستنجد بعمرو ، فانجده ، وتراجع الروم حتى سلطيس (اليوم سنطيس ٧ كيلو مترات من دمنهور) فالتقى الجمعان عندها ..

وبعد معركة عنيفة انهزم الروم .. وتقهقروا عند الكريون (قرب معمل القزاز ، مركز كفر الدوار بحيرة) .

وكان هذا الموقع يعتبر من الناحية العسكرية مفتاح الإسكندرية .. وكان فيها حصن منيع .. وعندما رأى قائدها (تيودور) قدوم العرب طلب نجدة من الحاميات الرومية القريبة من الخيس (الآن قرية أم حكيم بحيرة) وسخا ، وبلهيب .. واستمر القتال ثلاثة عشر يوما .. انهزم بعدها الروم .. فدخلوا الحصن .. وتتبعوا من هرب منه .. ومضى جيش عمرو بن العاص .. إلى أن وصل إلى خط الدفاع الأول عن الإسكندرية .. وهو سلسلة من الحصون الرومانية التى تحمى الإسكندرية فوقف عندها مع جيشه وقادته يتدارسون الموقف ..

شاهد عيان :

ويروى كتاب بن عبد الحكم أن عبد العزيز بن مروان عندما قدم - فيما بعد - للإسكندرية سأل عن كيفية فتح الإسكندرية .. فجاءوا له بشيخ كبير وقالوا له إنه آخر من حضر فتح الإسكندرية .. فسأله عما رآه عندما كانت جيوش عمرو تحاصر الإسكندرية فقال :

- « كنت غلامًا عندما جاء عمرو لفتح الإسكندرية .. وكان لى صاحب ابن بطريرك من بطاركة الروم ، فقال لى ألا تذهب معى حتى ننظر إلى هؤلاء العرب الذين يحاصروننا ، فلبس ثياب ديباج وعصابة ذهب وسيفا محلى وركب « برذونا » (حصانا) سمينا كثير اللحم ، وركبت أنا برذونا خفيفا فخرجنا من خط الحصون

الرومية كلها حتى اقتربنا من خيام « عمرو بن العاص » .. وهناك رأينا جمعا فى خيام ، عند كل خيمة فرس مربوط ورمح مركوز .. كان أفراد القوم نحافا ضعافا .. وعجبنا من نحافتهم ، وقلنا .. كيف بلغ هؤلاء القوم ما بلغوا .. رغم ضعف أجسامهم الظاهر ؟..

وبينما نحن ننظر إليهم فى دهشة .. إذ خرج رجل منهم من خيمته ، وما إن رآنا حتى أسرع إلى فرسه وحله ثم مسح على ظهره ووثب عليه وهو عرى وأخذ الرمح بيده وأقبل نحونا ، وقلت لصاحبى : هيا بنا والله إن هذا الفارس يريدنا وفعلا رأيناه مقبلا إلينا كالسهم فأسرعنا مدبرين ، فلحق بصاحبى لان برذونه (حصانه) كان ثقيلا فطعنه برمحه .. ثم أقبل فى طلبى .. ولكنى استطعت الإفلات منه بصعوبة (لأن برذونى كان خفيف اللحم) فنجوت منه ودخلت الحصن لاهثا ..

الغريب أننى عندما صعدت إلى سور الحصن أنظر إلى هذا الفارس ، فإذا هو بعد أن يئس من اللحاق بى يعود إلى الحصن .. وفى الطريق إلى خيمته مر على صاحبى القتيل .. فلم يلتفت إليه .. ولم ينزل حيث يرقد .. لسلب ما يحمله .. أو ينزع عنه ما كان يرتديه من ثياب أو ديباج أو ذهب .. وإنما عاد إلى خيمته يكبر بكلام من القرآن .. ودخل خيمته لا يلوى على شىء ، حتى دون أن يحدث أحدا من أصحابه بما فعل .. فعرفت سر قوة هؤلاء القوم - رغم نحافتهم الظاهرة - وأنهم ما ظهروا علينا إلا لأنهم لا يطلبون الدنيا ، ولا شيئا من متاعها ولا حتى يتباهوا بما نتباهى به من أمجاد وبطولات زائفة » .

فتح الإسكندرية :

ونكمل القصة ..

فنرى أن عَمْراً بقى عند خط الحصون خارج الإسكندرية حوالى شهرين ، يستطلع تفاصيل الموقع .. ويتدارس مع أركان حربه الثغرات التى تنفذ به إلى قلب الإسكندرية .. وانتشرت جيوشه فى مساحة عريضة ما بين « حلوة » إلى قصر فارس .. ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة للجنود ، والعلف للخيول .

وكان من الواضح من خلال التقارير الواردة لخيمة عمرو من سرايا استطلاعه أن الروم فى الإسكندرية استعدوا استعدادا عظيما ، واهتم (هرقل) ملك الروم بالدفاع عنها .. وقال إن كنائس الإسكندرية هى أفضل كنائس إمبراطورية الروم ..

وأن الروم لن تقوم لهم قائمة بعد سقوط الإسكندرية ، ولكن الموت حال بينه وبين قيادة الروم دفاعا عن الإسكندرية ..

وعندما طال وقوف عمرو أمام الإسكندرية .. وكان بطبيعته رجلا وافر النشاط ، شديد الذكاء .. لا يحب السكون ، شغل بعض سرايا جنده وأمرها باخضاع بعض نواحى شمال الدلتا وإقليم الجيزة ، ثم عاد واقتحم حصون الإسكندرية ، وشدد الهجوم على روم الإسكندرية ودخل معهم فى قتال شرس ، حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية .. ورد أسراهم عند العرب .. ولم يستطع عمرو الإجابة لما طلبوه إلا بأذن من الخليفة عمر بن الخطاب ، لأن ما طلبه الروم منه .. يخضع لحكم الصلح ..

ولكنهم رفضوا الصلح .. وقاتلوه ، فكتب عمرو إلى عمر بذلك ، فوافق على إجابة مطلب الروم .. ودخل العرب الإسكندرية بعد نحو ثلاثة أشهر من الحصار المحكم والقتال الضارى .

وأسرع عمرو - بعد ذلك - بعدد كبير من أفراد جيشه ليتبع فلول من هرب من الروم .. وترك ألف جندى (فقط) بالإسكندرية ، فلما أحس الروم الذين هربوا إلى البحر بذلك .. عادوا للإسكندرية ، ودخلوها ناقضين العهد .. فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا حتى استولوا على الإسكندرية مرة أخرى .

ورأى عمرو أن ذلك يبيح له اعتبار البلد قد فتح عنوة « بغير عهد ولا عقد » .. لأن الروم عادوا ونقضوا العهد .. ولكن عمرو كان حذرا جدا فى تعامله مع عمر بن الخطاب .. ويخشى غضبه .. فأرسل اليه يستأذنه أولا .. ومرة أخرى أبى عمر بن الخطاب أن تصبح الإسكندرية (غنيمة) للمسلمين - كحال البلاد التى ترفض الصلح والجزية - وأمره أن يعقد معها الصلح مع دفع الجزية .. وبعث عمرو إلى (قيروس) بطريرك الرومان .. فأسرع هذا إلى القسطنطينية ليحصل على تفويض بذلك ، وعاد بالموافقة ، وطلب من عمرو المحافظة على الكنائس ، وعدم التدخل فى الشئون الدينية للأهالى والسماح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية ، وأفهمه عمرو أن المسلمين - فى حالة الصلح - لا يجبرون أحدا على الدخول فى الإسلام إلا (باختياره) .. وأن الاسلام لا يضطهد المخالفين له فى الدين .

وتم الاتفاق على أن يبقى العرب أحد عشر شهرا خارج المدينة حتى يتم الجلاء التام لجميع جنود الروم ، منعا لأى اشتباك عسكرى ، وتم الصلح .. فى نوفمبر ٦٤١م .. وأبحر آخر جند الرومان ١٧ سبتمبر ٦٤٢ .. حيث دخلها العرب وتم منذ هذا اليوم .. الفتح النهائى لمصر .. وذلك بعد حوالى سنتين وأربعة أشهر من بداية

الفتح ، فقد وصل عمرو بن العاص العريش فى ١٢ ديسمبر ٦٣٩ .. ودخل العرب الإسكندرية .. بعد خروج آخر جندى رومانى فى ١٧ سبتمبر عام ٦٤٢م .

وهكذا ضم العرب إلى إمبراطوريتهم الناشئة القطر المصرى .. الذى كان أثمن وأغنى ما ملكته دولة البيزنطيين الرومان .. ووضع العرب قدما ثابتة فى أفريقيا مكنت لهم فيما بعد السيطرة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط .. ومن الاسترسال فى الفتح حتى استولوا على المغرب كله والأندلس (أسبانيا) .. وسيطروا بذلك على الحوض الغربى لذلك البحر .. وأصبح الطريق ممهدا إلى تحويله إلى بحيرة عربية .

الرومان - ثانية - بالإسكندرية :

الغريب أنه بعد اغتيال عمر بن الخطاب .. وتولى عثمان بن عفان الخلافة .. وبعد أن استقرت أمور العرب فى الإسكندرية لمدة ثلاثة أعوام .. لم يكن الرومان قد نسوا « جوهرتهم » التى ضاعت منهم فى مصر .. وأقصد بها الإسكندرية .. فجهزوا مئات المراكب .. وجيشوا عليها آلاف الرومان .. وعادوا فدخلوا الإسكندرية فجأة .. فعاثوا فى شوارعها فسادا .. ونكلوا بأقباط مصر الذين ساعدوا العرب .. وعقدوا معهم صلحا .. وقد عاد هذا التنكيل إلى كنائسها .. لدرجة أن بعض بحارة الرومان حاولوا سرقة رأس القديس (مارمرقس) من الكنيسة .. كما تم خلال هذه المذبحة حرق مكتبة الإسكندرية التى زعمت بعض كتب المستشرقين .. أن العرب هم الذين أحرقوها .

وكان عثمان بن عفان قد عزل عمرو بن العاص .. وولى مكانه عبد الله بن سعد على مصر .. ويقول ابن عبد الحكم :

- « فلما نزلت الروم ثانية للإسكندرية عام ٦٤٥م .. طلب أهل مصر من الخليفة عثمان أن يعيد تولية عمرو على مصر .. حتى يقود جيشها فى مواجهة الروم ، لما له من معرفة بالحروب وخبرة خاصة فى قتال روم الإسكندرية وهيبة بينهم .. فوافق عثمان .. وكان على الإسكندرية سورها .. فعزم على هدمه .. حتى يدخل فى مواجهة عنيفة مع هؤلاء الأعداء العائدين الناكثين لعهودهم مع عمرو مع حليفهم السابق المقوقس .

وقرر عمرو مواجهة الروم ومطاردتهم فى البر والبحر على السواء .. تركهم فى البداية يخرجون من الإسكندرية حتى يتبين له من (سينقض عهده) من القرى التى سيمرون بها .. ومضى الروم من الإسكندرية يعيثون فى بعض قرى البحيرة

فسادا ، فكانوا ينزلون القرية .. يشربون خمرها ويأكلون أطعمتها وينهبون ثرواتها هم ومن نقض معهم العهد من المصريين .. دون أن يتعرض لهم عمرو .. حتى التقى بهم عند بلدة (نقيوس) .. وانقض الروم على جيش المسلمين فى حماس بالغ ، تقهقر على إثره جيش عمرو قليلا .. ثم ما لبس جيش المسلمين ان استرد توازنه ولملم أجنحته .. وتقدم فى ثبات نحو جيش الروم الذى كان يتقهقر من قرية لأخرى .. حتى الإسكندرية ، وكانت كل قرية تشكو لعمرو ما نهبه الروم من قراهم .. فكان يرد عليهم كل ما نهب من متاعهم ودوابهم ..

واستمرت مطاردة جيش عمرو إلى الإسكندرية .. حتى دار قتال عنيف فى شوارعها ، قتل فيه من الروم عدد كبير ، وكذلك من المسلمين ، وعندما انهزم الروم فى البر .. تابعهم عمرو فى البحر .. حتى اختفى آخر مركب فى مياه الإسكندرية .. وكان هذا المشهد يرسم آخر صورة فى تاريخ الرومان بالإسكندرية وفى مصر كلها .

عمرو يصف الإسكندرية :

ويذكر أن عمْراً عندما فتح الإسكندرية فى المرة الأولى ، بعث إلى الخليفة عمر بن الخطاب خطابا يصف له مدينة الإسكندرية وجاء فى نص الخطاب :

ـ « أما بعد .. فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها تحوى أربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى ، وبها أربعون ألف يهودى .. علاوة على ما بها من أقباط وغير أقباط من كل أجناس الأرض » .

كما تقول رواية أخرى .. إن عَمْراً عندما دخل الإسكندرية كان بها مائة ألف من الروم ، ومائة مركب رحل عليها ثلاثون ألفا من كبارهم مع ما قدروا عليه من المال والمتاع ، وبقى بها ثلاثون ألفا منهم .. وكان العدد الكلى لأهل الإسكندرية حوالى ٦٠٠ ألف ، بين قبطى ورومى ويهودى .. ولم يعاملوا جميعا ـ حتى الذين أيدوا الروم خلال القتال ـ كأسرى .. وأمر عمر بن الخطاب أن يعرض عليهم الإسلام .. فإن اختاروا البقاء فى دينهم يبقون فى الإسكندرية أو فى قراهم .. ولا يدفعون سوى الجزية .. أى دينارين فى السنة لكل فرد .

وهكذا دخلت مصر كلها فى معاهدة الصلح .. ولم تخضع لقانون الغنيمة الذى كان سائدا فى ذلك الزمن .. وأوصى عمر .. بألا تؤخذ أموالهم أو أراضيهم غنيمة .. وإلا يستولى الجنود على مزارعهم ، بل يمنع الجنود من زراعة أرض يمتلكها أى مصرى .. إلا بحق الشراء .. وان تحمى كنائسهم .. وأن يعطوا حريتهم كاملة فى إقامة شعائر دينهم .. وأن يتساووا فى الحقوق والواجبات مع من يدخل الإسلام من

قبط مصر .. حتى يصبحوا قوة للإسلام ، ولا يحقدوا على الفاتحين .. ويصبحوا عونا فى فتح المزيد من الأقطار .. والأهم من ذلك ألا يجبر فرد منهم على دخول الإسلام .. وأن يكون ذلك طواعية .. لأن الله لا يقبل أن يعبد عن قهر .

عمرو يستعين بالقبط :

ويقول كتاب تاريخ الكنيسة القبطية لمؤلفه الشماسى « منسى يوحنا » : (ولما رأى هرقل ما كان من استيلاء العرب على مصر مات محزونا .. وأقسم عمرو على تنفيذ عهده مع المصريين .. وذكر المؤرخون الأقباط أنه بعد استتباب الأمر للعرب فى مصر .. وبينما كان الفاتح العربى يشتغل فى تدبير مصالحه بالإسكندرية ، سمع رهبان وادى النطرون و« برية شيهات » أن أمة جديدة ملكت البلاد .. فسار منهم إلى عمرو (سبعون ألفاً) حفاة الاقدام بثياب ممزقة ، يحمل كل واحد منهم عكازا - بسبب الآلام التى عانوا منها بسبب الاضطهاد الدينى الرومانى - فتوجس منهم عمرو .. واقلقه منظر هذا التجمع الغفير من الأقباط ..

ولكنهم تقدموا إليه وطلبوا منه أن يمنحهم حريتهم الدينية .. ويأمر برجوع بطريركهم (الشرعى) - بنيامين - فأجاب عمرو إلى طلبهم ، وأظهر ميله للأقباط فازداد هؤلاء ثقة به . ومالوا إليه خصوصا لما رأوه يفتح أمامهم الفسطاط ذاتها (عاصمة مصر الإسلامية) .. فما كان من الأقباط إلا أن ساعدوه (بخبرتهم) فى بناء العاصمة التى لم يكن بها مسجد واحد .. حيث كان المسلمون يكتفون بالصلاة فى العراء .. ولم يضايقهم أن يصلى أقباط مصر فى كنائسهم الفاخرة فى الإسكندرية بل وداخل الفسطاط ذاتها ..

ولم يكتف عمرو بهذه السماحة الدينية .. بل أثبت لأول مرة للمصريين أن الفتح الإسلامى يختلف عن أى غزو أجنبى سابق .. والذى كان يحوّل المواطن المصرى إلى عبد ومواطن من الدرجة العاشرة .. وأثبت أن الفتح الإسلامى مختلف .. فهو مجرد فتح لنشر دين جديد .. أما من يرغب فى الاحتفاظ بدينه .. فهو مواطن له نفس الحقوق والواجبات التى يتمتع بها القبطى الذى أسلم ، فلا تمييز لقبطى دخل الإسلام على قبطى ظل على مسيحيته .

وفى مجال الحياة المدنية ، فالكفاءة والخبرة هما اللتان ترشحان للعمل .. فاستعان عمرو بالأقباط فى بناء العاصمة ذاتها .. واستعان بخبرة الأقباط فى إصلاح شئون البلاد الإدارية .. وسمح لهم بتولى المناصب العالية ، فكان منهم فى عصره - وعلى طول العصر الاسلامى من بعده - الحكام والرؤساء والكتاب والمحاسبون وجباة الخراج .. فقام الأقباط بخدمة البلاد بأمانة حتى عم الرخاء .. وساد الأمن .

وقسم عمرو القطر المصرى إلى كور (أى إلى أقاليم وقرى) يرأس كل إقليم حاكم قبطى ، تأتيه القضايا ينظر فيها ويصدر أحكامه .. وكان عمرو كثيرا ما يخطب فى جيش المسلمين الفاتح ، وعلى مسمع من الأقباط .. ويقول عن عمر بن الخطاب إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا .. فكفوا أيديكم وعفوا فرجكم وغضوا أبصاركم » .

وعندما أراد عمرو أن يبنى جامعه المعروف .. اختار لهذه المهمة المقدسة مهندساً قبطيا ماهرا يدعى (بقطر) .. فهل يعى بعض صبية التطرف ـ الآن ـ إلى أية نهاية كانوا يريدون أن يدمروا بها مثل هذه البداية الباهرة .

روايات على هامش فتح مصر :

عندما توجه عمرو بن العاص لفتح الإسكندرية ، حاول أن يجمع (فسطاطه) أى خيمته .. فوجد عليها حماما قد أفرخ .. فأمرهم بترك خيمته بمكانها .. وعندما فتح الإسكندرية رغب أن يسكنها مع قادة جيوشه .. فاستأذن عمر بن الخطاب فى ذلك .. فسأل عمر رسول عمرو : « هل يحول بينى وبين المسلمين فى الإسكندرية ماء » قال : « نعم ياأمير المؤمنين » ..

وهنا كتب عمر إلى عمرو : « إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول بينى وبينهم ماء فى شتاء أو صيف ، فتحول عمرو بن العاص عن الإسكندرية وذهب إلى المكان الذى نصب فيه خيمته (أى فسطاطه) فبنى عاصمة سميت ـ لهذا السبب ـ الفسطاط .. نسبة إلى خيمة عمرو ، وهى الآن بجوار حصن بابليون .. أمام جزيرة الروضة التى يعرفها كل سكان القاهرة ..

كان الخليفة عمر يستعمل لهجة شديدة وصارمة جدا مع عمرو بن العاص خلال فتح مصر ، لما كان يستشعر منه أنه أحياناً يميل أن يكون (رجل دنيا) تتوق نفسه للمجد والمال .. فعندما علم أن عَمْراً لم يفتح خطابه إلا بعد أن دخل حدود مصر عنفه فى خطاب بدأه بقوله : « من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص » ثم عنفه للجوئه لهذه الحيلة .. حتى يفتح مصر على الرغم من رغبة خليفة المسلمين .. وعندما بنى عمرو بن العاص ، مسجده المعروف فى مصر القديمة .. وأقام منبرا عاليا .. على غير عادة المسلمين فى زمن عمر بن الخطاب .. بعث إليه عمر يقول : « أما بعد فانه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين ، أو ما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك ، فعزمت عليه لما كسرته » .. أى تمنيت أن آتى إليك وأكسره بنفسى ..

وتصور عمرو بن العاص .. أنه ربما خفف من شدة عمر في خطابه له ، فقام ببناء بيت لعمر بن الخطاب في الفسطاط ، بجوار مسجد عمرو ، فما كان من عمر بن الخطاب إلا أن بعث لعمرو يقول : « أنَّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر .. اتق الله يارجل .. واجعل هذا البيت سوقا للمصريين » ..

بنى عمرو بن العاص له بيتا أمام مسجده الشهير وكذلك ابنه عبد الله بن عمرو ومن كبار الصحابة الذين جاءوا مصر لفتحها أو زيارتها بعد الفتح .. واقاموا بها بيوتا الزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومحمد ابن مسلمة ، وعمار بن ياسر وأيوب الأنصارى ..

وقد بنى الزبير بن العوام بيته بسوق وردان بالفسطاط ، ووضع داخله السلم الذى صعد إليه إلى حصن بابليون .. وكان ابنه عبد الله بن الزبير .. يقيم فى هذا البيت عندما يحضر إلى مصر .. ومن كبار الصحابة الذين ورد ذكرهم فى زيارة مصر ونقل أحاديث الرسول إلى أهل مصر أبو هريرة وأبو ذر الغفارى وأبو الدرداء الذى أقيم له ضريح معروف موجود بالإسكندرية حتى الآن ..

ورغم محاولات عمرو الدائبة لاسترضاء الخليفة عمر .. فلم يتوقف غضب الخليفة على عمرو ، وقد حدثت مشادة كتابية بين عمر بن الخطاب وبين عمرو حول (خراج مصر) .. سمع عمر أن خراجها أيام الفراعنة .. كان مضاعفا ، وذكر الرواة أن الخراج الذى كان يجمعه المقوقس (للروم) من قبط مصر كان ٢٦ مليون دينار ، وذلك قبل الفتح بسنة ، بينما عمرو لم يستطع أن يجبى من أهل مصر سوى ١٢ مليونا ، ولما كان عمر ـ كما ذكرنا ـ لا يثق فى عمرو .. ويخاف على بيت مال المسلمين .. اعتقد أن عَمْراً اتخذ من مصر ضيعة له ولأصحابه ، فبعث له خطابا شديدا يقول : « من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص .. أما بعد فإنى فكرت فى أمرك فإذا أرضك (مصر) أرض واسعة عريضة .. وقد عالج أرضها الفراعنة مع شدة عتوهم وكفرهم فكانت تؤتيهم ضعف ما تعطينا من الخراج .. وعلمت أنه ما منعك من ذلك إلا (عمال السوء) .. وإنى لم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة لك ولقومك .. وإنما وجهتك لتوقيرك وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى هذا فأسرع بالخراج فإنه فىء المسلمين .. وبيت مال المسلمين » ..

ورد عليه عمرو .. « إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من عمرو بن العاص .. لقد قرأت كتاب أمير المؤمنين الذى استبطأنى الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى وإعجابه من خراجها على أيديهم .. ونقص ذلك منذ الآن ، ولعمرى

للخراج أيام الفراعنة أوفر وأكثر ولأرض مصر أعمر ، لأنهم كانوا على كفرهم لأرغب فى عمارة أرضهم .. والله ما أنا راغب عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تنضج غلتهم ، فكان الرفق بهم خيرا .. من أن يخرق بهم (نضغط عليهم) .. فيصيروا إلى بيع مالا غنى بهم عنه » ..

وفى النهاية حسم عمر بن الخطاب هذا الخلاف .. فاستدعى رجلا حكيما من زراع قبط مصر فسأله عن مصر وخراجها قبل الإسلام ..

فقال : « ياأمير المؤمنين ، كان لا يؤخذ منها شيء الا بعد عمارتها (جنى ثمارها) وعاملك (أى واليك) يضغط فلا يكاد ينتظر (العمارة) وإنما يأخذ ما ظهر منها ، كأنه لا يريدها إلا لعام واحد ..

فعرف عمر أن عمرو بن العاص معذور فى تأخير الخراج .. وقبل عذر واليه على مصر .. .

وما جاء فى (رد عمرو) حول الفراعنة .. صحيح « فالإسلام بغير عمل وزرع وتجارة وصناعة ، لا يهب الناس - وحده - ذهبا ولا فضة .. لأن الإسلام نفسه يقول : « وقل (اعملوا) فيسرى الله عملكم ... » أى سيكافىء الله أعمالكم ..

ويقول تعالى أيضا : « إن الله لا يضيع أجر (من) أحسن عملا » ولم يشترط فى كلمة (من) مسلمين أو أقباطا أو فراعنة .. فالفراعنة أحسنوا فأعطاهم الله رغم (كفرهم) .. هذه سنة الله فى الكون .. كما علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فهو الذى قال : « إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

والقصة كلها أبلغ رد على (المعاصرين المسلمين) الذين يصرخون فى حيرة : « ما بال الله قد فتح على الأوربيين » .. وجعل المسلمين فى ذيل الأمم ؟ .. الأوربيون عملوا .. فكافأتهم السماء .. والمسلمون (تنبلوا) فجازتهم السماء .. هذا ما علمنا القرآن والرسول .. ولكننا لا نقرأ إسلامنا .. بفهم ولا نمارس قيمه العليا .. وإنما نتبارى فقط فى ترديد (فضائله) .. ومبادئه .. دون تطبيق .. وهذه مشكلة المسلمين الكبرى .

فى أيام أبى بكر حاول الفاتحون لأرض العراق أن يستولوا على الأراضى الزراعية (كغنيمة) ، كما كان يحدث أثناء الغزوات أيام الرسول ، وعرب الجزيرة كما نعلم لم يكونوا مزارعين .. وكانت النتيجة أن هذه الأراضى تبقى ملكا لهم . ولا تزرع .. وهذا مخالف لما تهدف له نظرة الإسلام الاقتصادية من ضرورة تعمير الأرض .. واستشار أبو بكر عمر وبعض كبار الصحابة فى هذا ..

وباجتهاد مستنير أقر مجلس الصحابة مبدأ إسلاميا جديدا ، لم يقرر أيام الرسول .. وهو « أن أرض البلاد المفتوحة لمن يزرعها من أهلها الأصليين ، ثم يقرر عليها خراجها (أى ضريبة) لبيت مال المسلمين .. لتصبح دخلا للأمة الإسلامية كلها .. وليس للفاتحين فقط ..

لأن الأرض فى الإسلام « لمن يزرعها » .. وخاف الصحابة خراب هذه الأرض المفتوحة ، لو سلمت لجنود يجهلون فنون الزراعة ، بينما الهدف من وجود الإنسان فى الأرض عمار الأرض وليس خرابها ..

فلما تولى عمر بن الخطاب .. أراد أحد الجنود فى مصر زراعة قطعة أرض .. ولم يستأذن عمرو بن العاص .. فقبض عليه عمرو .. رغم أنه كان أحد قادة الفتح وبعثه إلى عمر بن الخطاب ، فقال له الجندى :

- لعمرى قتلتنى ياعمرو .. وذهب إلى عمر وهو يرتجف من لقائه .. فلما قدم إليه قال له عمر : « والله لأجعلنك ياشريك بن سمى » - وكان هذا اسمه - نكالا للمسلمين .. فقال له شريك .. أتقبل منى ما قبله الله من عباده (يقصد التوبة) قال عمر « نعم » .. ثم بعث إلى عمرو .. لقد جاءنى صاحبك تائبا فنبه على جنودك « لا يزرعون ولا يزارعون » ..

خليج أمير المؤمنين :

ويروى المؤرخون أن رجلا قبطيا مخلصا أتى لعمرو بن العاص ، فقال أفرأيت ان دللتك على طريق تجرى فيه السفن حتى تنتهى إلى البحر ثم إلى مكة .. فتضع عنى وعن أهل بيتى جزيتى ، فقال نعم ، فدله على الخليج المردوم الذى كان يصل للبحر الأحمر ..

فكتب عمرو إلى عمر بذلك .. فى نهاية عام الرمادة الذى استغاث فيه عمر بن الخطاب بابن العاص .. أن يبعث من مصر بمعونة .. لانقاذ مسلمى مكة والمدينة .. من مجاعة فاجأتهم ..

وحدث أن قال عمرو فى نهاية خطابه لعمر بعد أن أفهمه أن إرسال المؤن إلى الحجاز يستغرق وقتا على البعير « أرجو السبيل إلى أن أحمل لمسلمى الحجاز خراج مصر فى البحر بدلا من بعير البر » .

ولكن عمرو ندم على كتابه هذا وقال : لسوف يلح على عمر فى هذا العمل الصعب .. وقد يعنفنى - كالعادة - إن تأخرت ولن يقبل منى اعتذارا .

وفعلا كتب لعمر بن الخطاب بناء على مشورة بعض من حوله من غير المخلصين من المسلمين والأقباط « نظرت فى أمر خليج البحر فإذا هو عسر لا يستطاع » ..

فما كان من عمر إلا أن بعث اليه « إلى العاص بن العاص فقد بلغني كتابك تعتل فى الذى كنت كتبته فى أمر البحر ، وأيم الله لتفعلن أو لأقلعنك بأذنك أو لأبعثن من يفعل ذلك .. فى خلال عام » ..

فما إن وصل كتاب عمر .. حتى بحث عمرو عن كل الحكماء والخبراء من أهل مصر .. وقبل أن يتم العام .. كانت سفن الخراج تقوم من الفسطاط إلى البحر الأحمر ثم إلى بلاد الحجاز دون صعوبة فى مياه الخليج الجديد .. وتيمنا باسم عمر بن الخطاب الذى كان يحبه - رغم مخافته - سمى عمرو الخليج الجديد باسم خليج أمير المؤمنين .

عزل عمرو ووفاته بمصر :

عندما توفى عمر بن الخطاب .. كان عمرو بن العاص واليا على وجه بحرى .. وعبد الله بن سعد على الصعيد .. فلما استشهد عمر على يد « أبو لؤلؤة » المجوسى ذهب عمرو وطلب من عثمان بن عفان أن يتولى مصر كلها .. فقال له عثمان .. لقد ولاه عمر وليس بينه وبين ابن سعد اى قرابة أو مصلحة شخصية كما أن (ابن سعد) أخى فى الرضاعة .. فكيف أعزله عما ولاه غيرى .. فغضب عمرو وقال لعثمان .. والله لست راجعا مصر إلا على ذلك » .

فما كان من عثمان إلا أن عزل عمرو ، وولى عبد الله بن سعد مصر كلها .. وعرض عبد الله بن سعد ولاية الصعيد على عبد الله بن عمرو بن العاص ولكنه رفض أيضا .. ولكن عثمان عاد وولى عمرو على مصر عندما عاد الرومان للاستيلاء على الإسكندرية بناء على طلب من أهل مصر .. عام ٦٤٥ م ..

وعاش بعد ذلك عمرو بن العاص حوالى عشرين سنة .. ذهب خلالها إلى الشام واشترك مع معاوية بن ابى سفيان فى أحداث الخلاف بين على ابن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان .. وقد اختار الوقوف بجانب بنى أمية .. حتى ولاه معاوية مرة أخرى مصر .. وظل بها حتى توفى عام ٦٦٣ م الموافق سنة ٤٣ هجرية ، حيث تولى بعده عتبة بن أبى سفيان حكم مصر .

وذكر ابنه عبد الله بن عمرو أن والده عندما حضرته الوفاة دمعت عيناه فقال له : أجزع أنت من الموت يا أبى ؟ .. قال لا .. ولكن ما بعد الموت ، فذكر له عبد الله مواطنه التى كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم التى اشترك فيها بالشام .. وفتوحه لمصر وبرقة ..

فقال عمرو بن العاص .. لقد كنت أكره الناس لما جاء به رسول الله حتى تمنيت قتله ، فلو مت مع هذا لقال الناس مات عمرو مشركا .. ثم قذف الله الإسلام فى قلبى فبسط صلى الله عليه وسلم إلى يده ليبايعنى فقبضت يدى ، ثم قلت له صلى الله عليه وسلم أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، وأنا أظن حينئذ أنى لا أحدث بعد إسلامى ذنبا .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعمرو إن الإسلام يجب (يلغى) ما قبله من خطيئة .. فلو مت على هذا لقال الناس أسلم عمرو وجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نرجو لعمرو عند الله خيرا كثيرا ..

ثم كانت (فتوح وإمارات وفتن) .. ووقعنا فى الكثير منها .. اللهم إنك أمرت بأمور ونهيت عن أمور ، فتركنا كثيراً مما أمرت ووقعنا فى كثير مما نهيت .

أى بنى ، إذا مت فاغسلنى وترا واجعل فى آخر ماء تغسلنى به كافورا ، فإذا فرغت فأسرع بى فاذا ادخلتنى قبرى فسنوا على التراب .. ولا تدخل قبرى خشبة ولا طوبة ، واعلم أنك تركتنى وحيدا خائفا .. فإذا قبرتمونى فامكثوا عندى قدرا ، استأنس بكم .. اللهم إنى لست بريئا ما أعتذر ولا عزيزا فأنتصر .. ولكن أستغفرك اللهم لا إله إلا أنت .. اللهم لا إله إلا أنت ثم اسلم روحه الكريمة .. وتم دفنه بالمقطم ناحية مكان يطلق عليه وقتئذ (الفج) .. وكان طريق الناس للحجاز .. ويبدو أن عَمْراً أحب أن يدعو له من مر به إلى الحجاز .

ويبدو أن عبد الله بن الزبير قد مر بقبر عمرو بن العاص يوما .. فهاله وحشة القبر .. ووحدة عمرو .. تحت سفح الجبل .. وتذكر كل حياة عمرو .. بخيرها .. وشرها .. وحيلها .. وكان قد عانى من بنى أمية .. ومن يزيد بن معاوية (الذى ساعده عمرو والأشعرى فى خلع على من الخلافة) .. وقد أدت كل هذه الاحداث فى النهاية إلى مصرع عبد الله بن الزبير فى مكة على أيدى جنود يزيد ، ولهذا عندما مر عبد الله على قبر عمرو عند سفح المقطم نعاه .. وتذكر حكمة الاقدار فقال :

ألم تر أن الدهر أخنت ربوبه على عمرو السهمى تجبى له مصر
فأضحى نبيذا بالعراء وضللت مكائده عنه وأمواله الدثر
ولم يغن عنه جمعه واحتياله ولا كيده حتى أتيح له الدهر

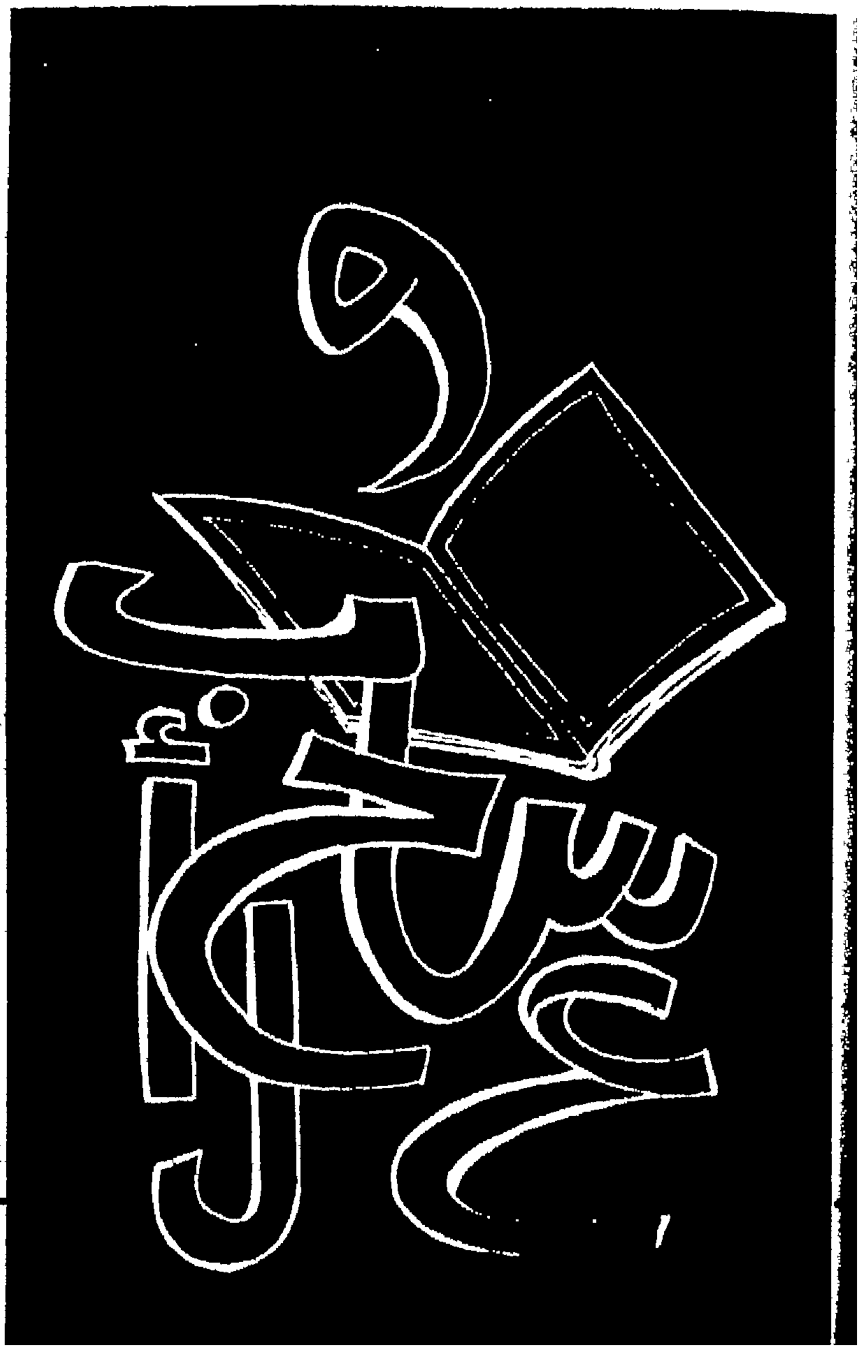
ولكن مهما قيل فى سيرة هذا الفاتح العظيم .. الذى صارع فى جاهليته وقاتل فى إسلامه .. وفتح أمصارا وأقطارا .. وانتصر لملوك وأمراء وحالف سلاطين .. وعادى خلفاء .. فقد أجمع كل المؤرخين على أنه من أذكى رجال العرب .. ومن

أعظم الفاتحين الإسلاميين .. كما أجمعت كل كتب الأقباط والمسلمين على أن عهده فى مصر كان أكثر العهود رخاء وأمنا وعدلا .. سواء قورن بما قبله من عهود الرومان ، أو بما بعده من عهود الولاة المسلمين .. كما سنرى فى الفصول القادمة ..

الفصل الخامس

رحلة الاسلام والتعريب

« التعريب .. والأسلمة .. وضمان حرية العقيدة »



بعد الفتح الإسلامى (مباشرة ..) عادت أمور المصريين إلى مجراها الطبيعى وكأنما لم يحدث شيء .. ولم يسقط عهد .. ويستيقظ عهد جديد .. وبدت البلاد خلال العشرين سنة الأولى من الفتح .. فى هدوء يثير التأمل .. وبدأ المصريون وكأنهم يلتقطون أنفاسهم ، بعد معاناة طويلة ، خلال القرنين الخامس والسادس الميلادى ، بعد أن تخلصوا من صراعهم العقائدى مع أباطرة الرومان ، عادوا إلى الدعة والسكون ، وكأنهم فى حالة شوق عظيم إلى الراحة والاستجمام .

وساعد على ذلك أن العرب كانوا خلال هذه السنوات الأولى مشغولين بشئونهم وفتوحاتهم .. حيث كانت جيوشهم تفتح شرقا وغربا .. ووراء هذه الجيوش .. أقبلت جماعات من المهاجرين العرب تستقر فى هذه البلاد المفتوحة .. حدث ذلك فى العراق ومصر والأندلس .

وفى هذه البلاد كانت الأراضى شاسعة .. تحتاج إلى نظام عادل يحكمها ، وأيد عاملة تعمرها .. وجاء بهذا النظام الإسلام .. أما الأيدى العاملة فتمثلت فى الأيدى المهاجرة .. من الجزيرة العربية ، وأيضا من اليمن .. حيث لعب هؤلاء دورا كبيرا فى تعمير هذه الأراضى المفتوحة .. وزراعتها .. نظرا لما لهم من خبرة زراعية سابقة فى أرض سبأ ..

وإذا كان عرب الشمال من الجزيرة العربية - وفى مقدمتهم قريش - قد حلموا عبء الفتوح .. وإدارة الجانب العسكرى والأمنى والسياسى والإدارى .. فإن عرب الجنوب من اليمنيين عرفوا كيف يجنون الثمرات ، فقد كانوا شعبا ميالا إلى الاستقرار ، له عهد بعيد بالزراعة والتعمير وما يتصل بهما من أعمال الحضارة .

انتشار اللغة العربية :

وبالنسبة لانتشار العرب .. واللغة العربية ..

حدث فى مصر .. عكس ما حدث فى فارس .

ويذكر الدكتور حسين مؤنس فى موسوعة « تاريخ الحضارة المصرية » .. أنه « بعد فتح العراق مباشرة نجد بطون لخم تزحف شرقا وتستقر فى نواحيه ، وتسرع إليها جماعات أزد اليمن فيكثر عددها ، حتى غلبت على أرض العراق ، ثم زحفت منها فروع غربا ، فعمرت غربى إيران ، ثم امتدت إلى خراسان .. حتى تحولت إلى مستعمرة يمنية عقدت زعامتها لقبائل أزد اليمن ، وكانوا أكثر القبائل عددا ، أما العمال وجندهم فكانت غالبيتهم من قبائل القيسية (شمال الجزيرة العربية) .. حيث

بدأ التنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب اليمنى ، انتهى إلى صراع دموى أدى إلى أضعاف الجانب العربى فى فارس وخراسان .. ثم انتهت سيادة العرب تماما واللغة العربية بمجىء العباسيين الذين فضلوا الخراسانيين على العرب .. وبدأت اللغة الفارسية تغلب مرة أخرى على ألسنة عرب فارس ، الذين بقوا هناك ، حتى نسى الكثيرون منهم لغته وأخذ يتكلم الفارسية .. !! .

وهذا مالم يحدث فى مصر ..

فقد كانت القبائل القيسية من عرب الشمال .. هى الأقلية من العرب المهاجرة لمصر ، فخلا الميدان لعرب جنوب الجزيرة العربية ، فسارت فى طريقها محتفظة بقوتها وهيبة لغتها وعروبتها أمام السكان .. وتمكنت من نشر العربية والإسلام .. كما فعلت فى الغرب والأندلس ..

هذا إلى جانب أن معظم رجال الجيش العربى الفاتح كان من عرب اليمن بينما ، كانت القيادة ـ بالطبع ـ لعرب الشمال .. ويمكن ان نستنتج ذلك بسهولة إذا رجعنا إلى كتاب (ابو القاسم بن الحكم) عن فتح مصر .. ومن مراجعة اسماء القبائل التى ذكرها عندما كان يتكلم عن « خطط » مدينة الفسطاط .. والقبائل التى اتخذت خططا (أى احياء) بها .. فإذا استثنينا اسماء نادرة من قريش .. وجدنا انفسنا أمام أغلبية يمنية هى التى ملأت أحياء المدينة فى أول عهدها .. مثل قبائل : « حضرموت وسبأ ومهرة ولخم وحذام وغافق ويحصب ومعافر وغطيف وخولان وغيرهم كثير .. » .

وعلى امتداد العصر الأموى نلحظ أن تيار الهجرة العربية لمصر كان مستمرا ، ويبدو أن غالبية المهاجرين كانوا كذلك من اليمن .. وكان معظم هؤلاء يسكنون الفسطاط .. أما المهاجرون من عرب الشمال (القيسية) فكانوا يسكنون ناحية بلبيس وغرب الدلتا (البحيرة الآن) .. مما خفف من حدوث صراع يدمر قوتهم ، كما حدث فى كل من فارس والأندلس ..

هذا .. وقد حرم عمر بن الخطاب على جند العرب المدونين بقوات الجيش الاشتغال بالزراعة أو الإنصراف إلى أى عمل آخر يشغلهم عن عملهم الرئيسى ، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب عامة .. لأن هذا غير ممكن من الناحية العملية .. علاوة على أنه غير منطقى إذ كيف يمكن تحريم ذلك على مهاجر ، هاجر إلى بلاد مفتوحة ليرتزق ويعيش ويعمر ؟ .

وإلى هذه الجماعات المدنية المهاجرة ، التى اشتغلت بالزراعة ، يرجع المؤرخون كل الفضل لانتشار اللغة العربية والدين الإسلامى .. لانتشارهم وكثرتهم .. حيث كان

فى سلوك المسلمين فى بداية الفتح .. ما يغرى الآخرين على الدخول فى دين الله أفواجا .. فالقوة المقرونة بالتواضع والصدق والأمانة والزهد ، كانت صفات مفتقدة .. بل صفات دمرها الجو الظالم الذى ساد حياة المصريين أيام عصر الاضطهاد الإغريقى والرومانى .

وفى مصر ـ كما حدث فى العراق ـ نجد أن الغالبية العظمى من مهاجرى اليمن الذين اختلطوا بالناس كانوا ـ أول الأمر ـ من اليمن .. ثم لما غلب الأنصار على أمرهم فى معترك السياسة العربية (فى المدينة المنورة العاصمة) بعد أن انتزع المهاجرون الأمر منهم (أيام أبى بكر وعمر بن الخطاب) ترك الأنصار ميدان السياسة ، وانصرفوا إلى مطالب العيش ، فهاجر العديد من قبائل شمال الجزيرة إلى مصر .. وهكذا مضت الأحوال ـ فيما بعد ـ فكلما انهزم فريق من العرب فى ذلك المعترك السياسى انصرف افراده إلى طلب العيش فى الأمصار أو الزراعة فى أرياف البلاد المفتوحة .. وهكذا كانت المعارك السياسية تلقى فى ميدان الحياة العامة فى مصر بفريق من العرب المهاجرين بعد فريق ، وهذه الجماعات السياسية المنهزمة هى التى حققت للإسلام والعربية نصرهما وانتشارهما الحقيقى والتدريجى الطبيعى فى بلاد مثل : مصر والمغرب والأندلس .. ومن أفرادها تكونت معظم الجماعات التى اشتغلت بالعلم والدرس فى مركز الدولة والأمصار المفتوحة .

وجدير بنا أن نلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب العلم أو الزراعة لم يتخلوا عن هويتهم ، بل خالطوا الناس معتزين بعروبتهم ، وتزاوجوا معهم وأورثوا أولادهم صفاتهم العربية ، مما ساعد على زيادة العرب فى أنحاء البلاد .. ومما شجع على ذلك ما كانوا يتمتعون به من امتيازات معنوية ، بحكم الدين والأهل واللغة ، مما حبب إلى الناس الانتساب إلى العرب ، وإلى التحدث بلغتهم ، .. واعتناق الإسلام .. واتخاذ أسماء عربية ، بل واصطناع أنساب عربية فى بعض الأحيان .. ومازالت بقايا هذه الروح سارية بين أبناء الريف المصرى حيث كثيرا ما نسمع فى مجالسهم عندما يتحدثون عن أحولهم العربية بفخر ـ بالقول ـ بأنهم من الأشراف .. أى من القبائل العربية .. أو أن أصولهم عربية .. كانت تعيش على أرض (الحجاز) .. فى الجزيرة العربية .

ومن هنا سارت عملية (الأسلمة والتعريب) سيرا طبيعيا منذ البداية ، وتشكلت ظروف عملية (التعريب) (والأسلمه) بظروف البلاد المفتوحة .. وفى هذا يقول الدكتور حسين مؤنس المؤرخ الاسلامى :

ـ « ففى الوقت الذى انتشر فيه الاسلام ـ فى فارس ـ بخطوات أوسع من انتشار اللغة العربية ، حدث العكس فى الأندلس ، حيث سار الاستعراب (أسرع) مما سار

انتشار الإسلام ، بينما فى مصر سار الأمران جنبا إلى جنب ، لأسباب تتعلق بحالة المسيحية واللغات العديدة الضعيفة ، التى كان الناس يتكلمون بها عندما دخلها العرب[1] .

« من المسيحية للإسلام .. بسهولة »

ولكن كيف كانت ظروف المسيحية ، والمسيحيين فى مصر .. عاملاً مساعداً على انتشار الإسلام ؟ الواقع أنه كان لاختلاف المذاهب النصرانية دوره فى تعريض أصول العقيدة النصرانية للإبهام والغموض فى نظر الناس .. ولم تكن العقيدة المسيحية إذ ذاك محددة المعالم أو مستقرة القواعد ، وكانت المجامع الدينية « الكنسية » تسعى نحو التحديد ، ولكن شئون هذه المجامع شابتها أهواء الأشخاص وأفسد أمرها تدخل أباطرة الرومان ، لأغراض سياسية حينا وشخصية حينا .. وكانت مصر .. من بين بلاد الدولة البيزنطية .. التى اعتنقت عقيدة المونوفيزية .. وهو القول بطبيعة واحدة للمسيح .. وهى عكس عقيدة الدولة الرومانية البيزنطية الحاكمة ، التى تؤمن ـ كما ذكرنا فى الفصل الثانى ـ بالعكس .

وقد تمسك البطاركة وقساوسة ورهبان مصر بهذه العقيدة .. واستطاعوا عن طريق بطارقة عظام من أمثال « ديوسفورس » و« كيرولس الاسكندرى » أن يكسبوا انتصارات كبرى فى المجامع الدينية الكبرى .. وأصبحت عقيدة المونوفيزية ـ وهى القول بالطبيعة الواحدة ـ مظهرا من مظاهر القومية المصرية ومفجرا لصراعهم الطويل .. مع أباطرة الدولة البيزنطية الرومانية .

وقد تنبهت الدولة البيزنطية إلى هذه الناحية ، وبذلت أقصى جهودها للانتصار على عقيدة المصريين فى مجمع « خلقيدونية » ، الذى يسمى فى التاريخ القبطى المصرى بـ « مجمع اللصوص » .

ومن تاريخ ذلك المجمع انفصل المصريون انفصالا روحيا تاما عن كنيسة الدولة البيزنطية فى القسطنطينية ، وعن كنيسة روما أيضا .. مما دفع حكام مصر الرومان إلى استخدام أقسى وسائل الاضطهاد لصرفهم عن عقيدتهم دون جدوى . فلما غزا الفرس مصر .. نفر المصريون منهم أول الأمر بسبب ما ارتكبوه من أعمال العنف والقسوة ، ولكنهم أحسوا بميزة الانفصال بكنيستهم عن تلك الدولة البيزنطية ، التى لم يعرفوا فى أيامها إلا المتاعب والاضطهاد .

---

(١) تاريخ الحضارة المصرية .

فلما خرج الفرس وعاد البيزنطيون عادت معهم الاضطهادات والمتاعب ، وندبت الدولة ذلك الأسقف المتعصب « قيرس » أسقف « فازيس » ليقضى على مقاومة المصريين ويهدم كنائسهم المتمرده على عقيدة الكنيسة البيزنطية .

ونتج عن هذا الصراع الطويل ، وما تخلله من بلبلة الأفكار بسبب هذا التضارب المذهبى الدامى ، وكذلك من تعدد المذاهب التى اقترحتها الدولة رغبة منها فى التقريب بين المذاهب المختلفة أحيانا وفرضها فى أحيان أخرى ـ نتج عن كل هذه الضغوط السياسية والعقيدية (بلبلة) أضعفت أمر المسيحية فى مصر ضعفا شديدا ، .. كما نتج عنها نوع من التشتت فى أفكار الناس ، بحيث يصعب القول بأنه عندما فتح العرب مصر كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل .. لدرجة أن بعض مؤرخى النصرانية ذهبوا إلى أن المسيحية لم تتغلغل فى أعماق النفس المصرية حيث قال « ليفيفر » : « إن المسيحية لم تغير شيئا من روح الشعب المصرى ، ولم تصل إلى التأثير فى الحياة الخاصة للأفراد ، ولم تتحول الأرواح تحولا عميقا إلى المسيحية » .. كما قال جاستون فييت : « إن الشىء الذى لم يكن له أثر فى مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الدينية ، ذلك أن نصرانية الأقباط استنفدت فى أتون المنازعات المذهبية مع البيزنطيين ، وإنا لنحلظ عندهم منذ زمن مبكر معارضة تقوم على كبرياء قومية أكثر منها اعتقاداً دينيا .. وربما نلحظ ذلك بوضوح بعد مجمع خلقيدونية » ..

وكان هذا من الوضوح بحيث يحق لنا ان نتساءل عما إذا كان تعصب الأقباط للمونوفزية فى حقيقته كراهة للسلطان البيزنطى قبل أن يكون اقتناعا بعقيدة .

والواقع ان هذا الكلام هو تعبير عن فهم أجنبى لطبيعة المصريين ذات النسيج الذى يشكل أهم خيوطه التدين الشديد .. وتقديسه للعقيدة التى يقتنع بها .. وإذا كان هذا الخلاف « البيزنطى » العقائدى قائما فى مراكز المسيحية المعروفة فى مصر مثل الإسكندرية وبابليون ونقيوس .. فإن العقيدة المسيحية الخالية من هذه « الشوائب المذهبية » كان يعرفها عامة الأقباط فى مصر ، من خلال التعاليم التى بثها فى طول البلاد وعرضها قطب هام من أقطاب المسيحية ، وهو القديس الشهيد مارمرقص ، والذى كان واحدا من الحواريين الذين تلقوا تعاليم المسيحية الحقة عن السيد المسيح مباشرة .

وكان الرأى السائد عند عامة الأقباط المصريين ورهبانهم الأطهار فى ذلك الوقت قريبا جدا من رأى الإسلام فى السيد المسيح عليه السلام . ولم يكن من العسير ـ لهذا ـ أن يتحول الكثيرون من المصريين إلى الإسلام دون جدل أو جهد كبير ، خاصة أن

الإسلام دين سهل لا تعقيد فيه ، تماما كسهولة وسماحة المسيحية التى جاء بها المسيح ، فالمنبع واحد .. هو الله الواحد الأحد .. بعث برسائله إلى رسله : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام .. فقط كانت الرسالة تختلف باختلاف ظروف البشر وأحوالهم ومدى احتياجاتهم لجرعات روحية أو نظم تشريعية .. ولذلك لم يكن اقتناع المصريين المنتمين للمسيحية الحقة يحتاج إلى شرح أو تفصيل .. بل كان الإسلام بالنسبة لمسيحيى مصر والشام فى ذلك الحين (مخرجا) مريحا من متاهة المذاهب المتضاربة .. ومشاكل الطبيعة الواحدة والطبيعتين ، حتى إن (بعض) المسيحيين لم يروا فى الإسلام - اذ ذاك - إلا مذهبا جديدا واضحا من مذاهب المسيحية .. وليس خروجا من دين إلى دين .. وإذا أضفنا لذلك ما أصاب كنائس مصر من هدم وما لحق برجالها من اضطهاد وتشريد على أيدى البيزنطيين .. بحيث بات الكثير من الأحياء بلا كنائس ولا قساوسة ، تصورنا دوافع أخرى لسهولة انتقالهم للدين الجديد .. إلى جانب أنه من الناحية العملية .. كان الدخول فى الإسلام ينقل المصرى أو الغربى أو الأسبانى إلى مرتبة الحكام وأصحاب الدولة ويرفع عن كواهلهم مطالب ومغارم كثيرة .. خاصة أن من أهم مبادىء الإسلام الأساسية .. عدم التعصب لعنصر أو لقطر .. أو أصول عرقية .. « فلا فضل - فى الإسلام - لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

لذلك لم يكن هناك أى نوع من القهر أو الإجبار أو الإكراه على (إدخال) الناس فى الدين الجديد .. فمعاهدة الفتح نفسها تترك الخيار لمواطنى مصر .. وأكبر دليل على ذلك أن مراكز تجمع جنود الفتح فى الفسطاط والجيزة والإسكندرية لم يكن لها أى دور فى نشر الإسلام - كما ذكرنا - فلم يكن هذا - رسميا - من مهمتهم .. ثم إن هذه التجمعات العسكرية كانت تجمعات مقفلة على العسكريين العرب .. تعرف مهامها الأمنية والدفاعية والعسكرية جيدا .. بل انتشر الإسلام عن طريق الاحتكاك اليومى الهادىء مع المهاجرين المدنيين ، التجار والزراع والمهنيين ومن الاقتناع التدريجى .. والتأثر (بالأخلاقيات) الجديدة التى يحملها هؤلاء المهاجرون الذين جسدوا بها إسلامهم .. من خلال الممارسة اليومية .. وليس بالخطب أو الدعوة المباشرة لاعتناق الدين الجديد .

فالإسلام انتشر فى مصر .. عن طريق المدنيين العاديين الذين لحقوا بالجيش العربى .. وانتشروا فى عواصم أقاليم مصر وريفها بحثا عن أراضٍ جديدة لزرعها .. أو أماكن جديدة يتاجرون فيها .. ومن خلال الاحتكاك والحوار اليومى .. والقدوة . كان الناس يدخلون الإسلام طواعية .. عن طريق فقهاء الفاتحين وقضاتهم .

وإذا لم يكن لهذه المعسكرات دور فى نشر الإسلام .. فقد كان لها أثر واضح فى انتشار اللغة العربية وثقافتها .. فقد كانت مراكز عربية صرفة .. وقد نشأت فى الفسطاط - بصفة خاصة - مدارس علمية وفقهية ، كان لها أبعد الأثر فى تعريب ألسن الناس ، وفى جعل مصر مركز الثقافة العربية الرئيسية .

وهكذا انتشرت العربية جنبا إلى جنب مع انتشار الإسلام ، وقد ساعد على هذا الانتشار أن المصريين - فى ذلك الحين - لم تكن لهم لغة واحدة يتفاهمون بها فى كل مكان ، فقد كانت اللغة القبطية إذ ذاك فى دور التكوين .. وكان حالها كحال اللغات الأوربية فى طور تكوينها الأول ، خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين .. حيث كانت هذه اللغات - التى نعرفها اليوم فى أوربا - مجرد بقايا لهجات لاتينية منحطة تعرف بلاتينية العصور المتأخرة « لا نَحْوَ لها ولا ضوابط ، ثم بدأت تنشأ منها لهجات فى النواحى .. ثم أخذت هذه اللهجات تتقارب حتى نشأت اللغة المحلية سواء كانت فرنسية أو أسبانية أو جرمانية .. وهكذا كان الحال مع اللغة القبطية .. فلم تكن لها صورة ثابتة فى الشارع المصرى ، اللهم إلا فى بعض الكنائس ، وفيما كتبه بعض قساوستها .. ثم إنها حتى فى هذه الدوائر القليلة تأثرت تأثرا كبيرا بلغة المصريين الأم ، اللغة الهيروغليفية ثم الإغريقية .. وكانت الوثائق الرسمية قبل الفتح مباشرة تكتب باللغة الإغريقية .. بينما كانت لغة الحكام الرومان هى اللغة اللاتينية .

وعندما دخلت اللغة العربية إلى مصر كانت لغة كاملة نطقا وكتابة ، قادرة على التعبير عن كل شىء ، ولها كتابة ثابتة معروفة .. علاوة على أنها كانت لغة العرب الفاتحين .. ولغة الدين الإسلامى .. ولغة القرآن .. ولغة الحكام الجدد ..

فلا غرابة فى أنها غلبت غيرها دون مشقة ، وأخذت تغلب على السنة أهل الوادى .. وليس معنى ذلك أن اللغة العربية حلت - تماما - محل اللغات المتداولة فى مصر دفعة واحدة .. فقط نحن نذكر أسباب سهولة الانتشار ، أما عملية الانتشار ذاتها فكانت كأى وافد ثقافى وحضارى جديد .. من خلال عملية تدريجية تمت على مر السنين ، وقد فصل الكندى فى كتابه « القضاة والولاة » خطوات هذا الانتشار من خلال عشرات الحكايات التى أوردها فى أخبار القضاة .. حيث يفهم من كلام الرحالة أن اللغة العربية لم تسد ألسنة أهل مصر حتى القرن السادس الهجرى .

وفى هذا المجال .. يحدد المؤرخون المسلمون أمرين كان لهما أكبر الأثر فى انتشار الإسلام واللغة العربية ، فى مصر .. الأول : قرار عبد الملك بن مروان سنة ٨٧ هـ ٧٠٦م بتعريب الدواوين فى الأمصار الإسلامية ..

وقد شجّع هذا كثيراً من أقباط مصر ، ممن كانوا يتولون هذه الوظائف ، على الدخول فى الإسلام وتعلم اللغة العربية ، حتى يحتفظوا بوظائفهم المرموقة .. صحيح أن قرار عبد الملك لم يطبق بصرامة .. وظل كثير من الأقباط يتولون الوظائف ، ولكن معرفة العربية كانت شرطا لازما لاحتفاظهم بهذه الوظائف ..

والأمر الثانى .. كان على العكس .. ولكن كان له نفس الأثر .. فقد أصدر الخليفة العباسي المعتصم قراراً بإسقاط العرب من الدواوين وقطع أعطياتهم عنها .. حيث كانت الدولة العباسية تناصب العنصر العربى - الذى قامت عليه الدولة الأموية - العداء لحساب العنصر الفارسى والأعجمى المتميز .. وكان ذلك عام ٨٣١م - ٢١٦ هجرية .

وبهذا القرار أصبح العرب الوافدون فى مصر .. والذين كانوا يتقلدون المناصب المتميزة ، من الرعية شأنهم شأن الأقباط ، سواء بسواء ، وزالت الحواجز .. وأصبحا كتلة واحدة على الدولة وأعجامها من الأتراك والشراكسة والفرس .

ولكن هذا القرار الأخير أدى إلى (زيادة اندماج) العرب فى الحياة العامة بمصر .. ويبدو أن ذلك الاندماج كان قد سار - بعد صدور هذا القرار - شوطا بعيدا ، إذ لم يثبت أن كان له رد فعل عنيف بين عرب مصر .. ولم يستنكره سوى نفر قليل من قبائل (لخم) وجذام لم يزد عددهم على خمسمائة ، وقد قضى والى مصر على مقاومتهم وانتهى كل شيء .

وقد سجل المؤرخ « فييت » من شواهد قبور تلك الفترة وما بعدها .. أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم الأصلية فى الجزيرة العربية على شواهد قبورهم فى مصر ، بجانب اسمائهم التى اكتسبوها وأولادهم فى مصر حوالى قرنين من الزمان .. ولكن ذلك تلاشى خلال القرن الثالث الهجرى .. وأصبح الناس ينسبون إلى أقاليمهم .. بعد أن أصبحت مصر وطناً جديداً لهم ولأجدادهم وأحفادهم .

ولكن المؤكد أن اللغة القبطية ، فقدت أهميتها تماما خلال القرن الرابع الهجرى ، حيث نجد كتاب الأقباط المشهورين من أمثال : سعيد بن البطريق وساويرس الاشمونينى ، يكتبون بالعربية ، وكانت كتاباتهم « العربية » موجهة للأقباط .. فلو كانت القبطية أسهل على لسانهم لكتب كتابهم بها .. أما وقد كتبوا بالعربية فذلك دليل على أن اللغة العربية كانت قد أصبحت لغة الناس ، أقباطاً وغير أقباط ..

ونكرر .. أن هذه العملية تمت فى مصر دون إرهاق أو ضغط ، بل لم تتم نتيجة

لسياسة خاصة للدولة الإسلامية ، فالدولة الإسلامية لم تكن لها سياسة معينة فى نشر الإسلام أو اللغة .. وربما لو حدث مثل هذا التخطيط ومثل هذا التعمد .. لما كان حسن الحظ الذى لاقته عملية انتشار الإسلام والعربية ، فقد اختار الإسلام مَن اختاره عن اقتناع ، وتعلَّم العربية مَنْ تعلمها من تلقاء نفسه أو بدافع من مصالحه الخاصة .

بل .. إن المتتبع والمراقب لما حدث فى مصر خلال القرن الأول الذى تلا الفتح ، يلاحظ كأنما كانت سياسة حكام المسلمين دافعة إلى إحياء وعودة ازدهار المسيحية المصرية .. ذلك أن العرب قد قطعوا صلة مصر تماما بالدولة البيزنطية ، عندما طارد عمرو بن العاص فلولهم خارج مياه الإسكندرية .. ومن ثم تنفس المونوفيزيون الصُعداء وأقبلوا يرممون ما ضعف من أمور عقيدتهم وكنائسهم ، وتَرَكَهُمُ العرب ، من خلال تعاليم دينهم الواضحة فى هذا المجال - ينظمون شئونهم الدينية كيفما شاءوا .. ينتخبون بطريركهم ، ويعيدون بناء كنائسهم ، ويزيلون الأسماء اللاتينية والإغريقية عن قراهم ونواحيهم ، ليُحِلُّوا محلها أسماء قبطية صرفة .

والنتيجة .. أن معظم الكنائس القبطية الكبرى الباقية إلى الآن إنما بنيت أيام الأمويين مثل : كنيسة أبى مقار وكنيسة القديس مرقص بالإسكندرية ومارجرجس ، تنفيذاً واتباعاً لتعاليم العقيدة الإسلامية السمحاء الخالية من التعصب ..

وكذلك كان فقهاء المسلمين القدامى من أمثال : الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة يشجعون ذلك ، ويذكرون لمسلمى مصر وأقباطها كيف كان المسلمون يساعدون فى بناء الكنائس .. وكيف كان عمر بن الخطاب يرفض الصلاة فى كنيسة القيامة بالقدس حتى لا يعطى أية إشارة لمن بعده بتحويل الكنائس إلى مساجد .. بل إن هذين الفقيهين الجليلين كانا يعتبران بناء هذه الكنائس من « عمارة البلاد » أى من تعميرها .. على أساس أن من مهام الإسلام تعمير الأرض « هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ... » .

وحتى عندما تولى أمر مصر ولاة أمويون وعباسيون بعيدون عن روح الإسلام ، وتعاليمه المتسامحة ، نلحظ أننا لا نكاد نجد واليا متشددا إلا أعقبه والٍ متسامح رحب الصدر يعيد أمر الأقباط إلى ما كانوا عليه .. فعاش من أراد الاحتفاظ بدينه فى مصر فى سلام حتى نهاية العصر الفاطمى وبعده ، فإذا كان قد أصابهم - خلال بعض الفترات العصيبة - ظلم فقد أصاب المسلمين فى مصر ظلم مثله .

وقد توقَّف طويلا بعض المستشرقين أمام بعض الحوادث ضد الحكام المسلمين والاضطهادات والثورات ، وصورها على أنها ثورات من الأقباط على الحكم الإسلامى .

ووقائع التاريخ الدامغة - التى سنروى بعض تفاصيلها فى الفصل القادم - تثبت العكس تماما ، إذ أنها كانت اضطهادات من حكام ابتعدوا تماما عن المفهوم الإسلامى ضد مسلمى وأقباط مصر على السواء .. وكانت هذه الثورات أيضا من جميع سكان مصر - مسلمين وغير مسلمين - ضد هذا الظلم الذى وقع من هؤلاء الحكام الذين حكموا مصر حكما سلطويا بحتا ، تحت شعار واسم الإسلام والدولة الإسلامية ، دون أن يكون لهم أدنى علاقة بقيم الإسلام العليا ..

معظم هذه الثورات كانت فى العصر العباسى .. وكانت أسبابها مالية بحتة .. إذ كان الخلفاء العباسيون يعتبرون ولاة مصر مجرد جباة ضرائب وخراج .. وكانوا يلحون فى طلب المزيد لتغطية مصاريف عروشهم ولياليهم المترفة البعيدة والمنافية لأية قيمة إسلامية .. ولهذا كانت ثورة مسلمى مصر عليهم أسبق من ثورة الأقباط .. ويكفى أن نقول إن أكبر هذه الثورات كانت فى سنة ٢١٦ هـ ٨٣١م أيام الخليفة المأمون ، وهى الثورة التى أزعجته فى بغداد واضطرته إلى المجىء على رأس حملة إلى مصر - لم تكن ثورة أقباط - كما يدعى بعض المستشرقين - بل كانت ثورة كل سكان مصر .. فالظلم الذى وقع أيامها لحق بالجميع .. وكانت نتيجة مباشرة لسياسة الخليفة المعتصم ، عندما ولاه أخوه المأمون أمور (القسم الغربى) من دولة بنى العباس .

وقد أرسل المعتصم قائده (ألافشين) فأخمد ثورة عرب مصر المسلمين المشتركين فى الفتنة ، ولم يستعص عليه الا أهل البشرود بشمال الدلتا جنوبى بحيرة البرلس .. وكان أهلها ذوى عنف وشدة ، يعتصمون بمستنقعات نواحيهم فلا يصل إليهم أحد .. وكانوا فى حالة ثورة دائمة على الحكم العربى .. وقد حاول المأمون الاستعانة عليهم باثنين من بطاركتهم دون جدوى ، فوجه كل قوته نحوهم حتى أخضعهم فى أواخر عام ٨٣١م ، وكانت آخر ثوراتهم .. وثورات الأقباط أيضا .

وبعد ذلك كانت كل ثورات المصريين (مسلمين وأقباط) ضد الحكم الأجنبى ، وما كان يصحبه من مظالم .. لم يكن مُهِمًّا أن يكون هذا الحكم طولونيا أو إخشيديا أو مملوكيا .

ولعل السؤال الذى يراود أى قارىء لهذه التطورات .. كيف يحدث كل هذا بعد أن دخل الإسلام مصر ؟ .. بينما المعروف أن كل حوادث الاضطهاد والظلم التى عانى منها أقباط مصر قد توقفت مع الفتح الاسلامى .. لماذا تكرر الاضطهاد بعد الفتح الاسلامى وبعد وفاة عمرو بن العاص ؟ .. وما هى نوعية هؤلاء الحكام الذين

مارسوا بعض حوادث الاضطهاد ؟ .. وكيف استطاعوا القيام بمثل هذه الممارسات المخالفة تماما لروح القيم الإسلامية ؟ .. هذا ما سنحاول تفصيله وتحليله من خلال صفحات الفصل القادم والأخير ..

الفصل السادس

أحداث ..
ما بعد الفتح الاسلامى



بعد وفاة عمرو بن العاص .. ودفنه فى بطن جبل المقطم .. أخذ الفتح الإسلامى لمصر .. يأخذ شكلاً جديداً .. وتأثر (بشكل) الحكم الإسلامى .. وسياسته .. سواء كان حكما أمويا .. أو عباسيا .. أو طولونيا .. أو فاطميا .. أو أيوبيا .. كان الحكم أيام عمرو بن العاص حكما إسلاميا (صرفا) .. يمضى من خلال القيم الإسلامية الرفيعة .. حكما يديره عمرو بن العاص .. أحد كبار صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين عاشروه .. وصاحبوه فى غزواته .. واستمعوا مباشرة إلى أقواله .. واقتدوا به وبأفعاله .. وإلى جانب ذلك حكم مراقب - بصرامة - من أحد الخلفاء الراشدين العظام - عمر بن الخطاب - وهو أشهر رجال « العدالة » فى تاريخ البشرية ..

ولذلك تُعْتَبَرُ فترة حكم عمرو بن العاص .. هى أزهى فترات الحكم الإسلامى وأعظمها استقراراً وهدوءا وعدلا .. استراح فيها أقباط مصر .. بعد حوالى ستة قرون من اضطهاد الحكم الرومانى (٢٧ هـ - ٦٤٠ م) .. وهو حكم حرم المصريين حتى من حق المواطنة الرومانية .. ووضعهم فى أدنى قائمة الطبقات بعد الرومانيين واليونان واليهود .. ذلك لأن مصر .. اعتبرت منذ عام ٢٧ هـ ولاية رومانية تابعة للإمبراطور الرومانى مباشرة .. كما قرر ذلك الإمبراطور (مكسمليان) .

وفى الوقت الذى جعل فيه الرومان المصريين (غرباء فى أرضهم) .. محرومين من الامتيازات الممنوحة للرومان والإغريق واليهود .. جاء الحكم الإسلامى ليلغى جميع هذه الامتيازات ، وليعتبر المصرى - سواء كان مسلما أو مسيحيا - مواطنا فى الأمة الإسلامية وأصبح المواطن المصرى له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات .. اللهم إلا فى اختلاف بسيط يدفع بمقتضاه (غير المسلمين) الجزية مقابل (الزكاة) التى يدفعها المواطن المسلم وما دون ذلك ..

فحق المواطنة ممنوح للجميع .. وبالتساوى .. ولعل فى قصة (ابن القبطى) الشهيرة .. الذى ضربه ابن (عمرو بن العاص) وكيف مكن عمر بن الخطاب .. ابن القبطى هذا .. أن يأخذ حقه من ابن الحاكم (ضربا) .. وكيف كان الخليفة العادل ينظر إلى عمرو (حاكم مصر) خلال توقيع العقوبة ليقول له : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ، اضرب ابن الأكرمين » .

لعل فى هذه القصة الدليل المادى .. على مدى ما نعم به أقباط مصر من عدالة .. فى واحة الحكم الإسلامى .. بعد جحيم الاضطهاد الرومانى - البيزنطى .. وإذا كانت هذه القصة يعرفها كل مصرى .. فهناك عشرات القصص الأخرى غير الشهيرة ، ومنها قصة امرأة قبطية اسمها « فرتونة » .. بعثت ذات يوم من مصر بشكوى لعمر

بن الخطاب .. بأن (عماله) فى مصر هدموا منزلها .. من أجل بناء مسجد .. وعندما استفسر الخليفة من عمرو عن خبرها .. قال له : أردنا أن نوسع مسجدا .. وأعطيناها تعويضا عن مسكنها .. ورد عمر : ولكن المرأة لم تقبل . قال عمرو : نعم .. فغضب عمر وقال : كيف تقيمون مسجدا على حساب حق الآخرين .. وأمر بهدم المسجد وإعادة بناء بيت (فرتونة) من بيت مال الدولة .

المواطن فى الدولة الإسلامية :

هذا ما حدث فى مصر فى فترة ولاية عمرو بن العاص ، التى استمرت منذ الفتح لأكثر من عشرين عاما .

ولكن بعد استشهاد عمر بن الخطاب ووفاة عمرو .. تأثر الوضع في مصر بما حدث فى الدولة الإسلامية ذاتها من فتن وصراعات .. وقلاقل .. ذلك أن مصر لم تعد ـ كما يعتقد بعض المؤرخين المستشرقين ـ مجرد ولاية فى الدولة الإسلامية ، كالدولة الرومانية مثلا التى كانت تعتمد على شعب (حاكم ممتاز) يحكم ولايات من « التابعين والعبيد » .. فالوضع ـ فيما يتصل بدولة الاسلام كان يختلف .. فلم تكن هناك ـ من الناحية النظرية ـ دولة رئيسية ، تقوم على شعب ممتاز حاكم تخضع له ولايات تعيش داخلها شعوب مقهورة مغلوبة على أمرها .. ولكن الحقيقة فيما يتصل بالدولة الإسلامية أنها كانت (دولة عامة) أو بمعنى أصح (أمة عامة) يقوم بشئونها (المسلمون عامة) .. يعيش فى كنفها (غير المسلمين) لا يفرق بينهم فى الحقوق والواجبات جنس معين أو مكان معين (لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) ..

فكل مواطن مسلم فى هذه الدولة يعد من أصحابها ، وله الحق فى ولاية وظائفها العامة ، وقيادة جيوشها ، والاشتراك فى وضع تشريعاتها ، والاجتهاد فى تغيير قوانينها .. سواء كان هذا المواطن فارسيا أو شاميا أو مصريا (تذكُر جنسية كبار الشخصيات الفقهية والعلمية فى التاريخ الاسلامى (فالبخارى من جنوب روسيا ، وأبو مسلم الخراسانى من فارس ، والشافعى من فلسطين ، والرازى من تركستان ، والليث ابن سعد ، من مصر) ..

ومن عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت الجنسيات المسيطرة على شئون الدولة (تختلف) ، فهى حجازية قرشية أيام الخلفاء .. عربية خلال الأمويين .. فارسية أثناء العباسيين .. تركية أثناء العثمانيين .. فالدولة الإسلامية دولة (عامة) .. ليست دولة تسيطر فيها عاصمة متميزة على باقى العواصم .. فقد انتقل (مركز الدولة) من جزيرة العرب إلى الشام ثم إلى العراق .. ثم إلى مصر فى عهد الفاطميين .

والمفروض أن هذه البلاد جميعا كانت ولايات تتبع العاصمة (المدينة) .. ولكن هذا لم يحدث ، بل لم يجد سكان المدينة أية غضاضة فى هذا .. ولا سكان أية عاصمة إسلامية أن تحكم عاصمة إسلامية أخرى .. كان هذا شيئا طبيعيا وعاديا بالنسبة للمسلمين - وفى الوقت ذاته - شيئا فريدا بالنسبة لتاريخ الإمبراطوريات ، فالدولة الإسلامية ليست دولة جنس أو قطر .. ودخول مصر لم يكن يعنى أنها أصبحت تابعة لجنس غالب أو بلد له السيادة كما هو الحال فى الإمبراطوريات التاريخية ، وإنما كان معناه أنها أصبحت (جزءا من الأمة الإسلامية) .. بل أصبحت قاعدة لامتدادات جديدة .

كما حدث عندما امتدت فتوحات المغرب والأندلس من مصر .. وفتوحات فارس من العراق .. وفتوحات تركيا والروم من الشام ..

غير أن دولة مترامية الأطراف .. كالدولة الإسلامية .. تحوى شعوبا شتى لم يخلُ الأمر من شعب تجتمع له عناصر القوة حينا .. فيسيطر ، ثم تتحالف عليه عناصر الضعف فتتم السيطرة عليه ..

ومن ثم فقد غلبت داخلها شعوب على شعوب ، وخضعت بلاد لبلاد ، ولكن دون أن يكون معنى ذلك أن الشعب الغالب قد أصبح صاحب السيادة ، وصاحب الدولة على الشعب والبلد المسلم المغلوب .. فالتغيير كان يحدث فى السلطة العليا فقط .. ولكن المواطن المسلم أو غير المسلم الذى كان يعيش داخل هذه البلاد ، سواء كان بلده حاكما أو محكوما .. كان يشعر فى النهاية أنه مواطن فى (الدولة الإسلامية الكبيرة) ، بغض النظر عن مكان وجنسية العاصمة .. فقد كانت « الجنسية الإسلامية » هى الجنسية العامة المعترف بها داخل هذه الدولة .. ينتقل بها المواطن عبر حدودها المترامية .. دون تأشيرات أو جوازات ..

وقائع غريبة .. فى حاجة لتفسير :

هذا ما حدث فى مصر بعد الفتح ، فقد أصبح المصريون - سواء من أسلم منهم ومن لم يسلم - جزءا من الوطن الإسلامى الكبير .. يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أحكامه وظروفه وتقلباته ، فهدأت أحوال مصر بقية خلافة عمر بن الخطاب والنصف الأول من خلافة عثمان بن عفان .. شأنهم فى ذلك شأن أهل دولة الإسلام فى العراق والشام .. ثم شارك أهل مصر - سواء بقصد أو دون قصد - فى جميع الأحداث التى وقعت فى الدولة الإسلامية الكبرى كغيرهم من الشعوب التى دخلت فى نور الإسلام ..

فقد شارك أهل مصر فى أزمة عثمان بن عفان .. وقام أهلها بدور إيجابى ، فبعثوا بأكثر من ٦٠٠ منهم إلى المدينة .. وكانوا فى قلب الفتنة ألتى انتهت بمصرع الخليفة عثمان بن عفان ، رضى الله عنه .. ورغم ذلك فلم يأت الخلفاء الذين أعقبوا اغتيال عثمان ليفكروا فى أى عقاب يوقعونه على شعب مصر .. نظراً لاشتراكهم فى اغتيال (الامبراطور) .. فقد كان مجرد خليفة .. وكان الذين أشتركوا من المصريين مواطنين لهم حق المشاركة فى الاعتراض أو تغيير الوضع السياسى .. فى العاصمة .. المدينة ..

وكذلك لم يقف أهل مصر .. موقفا سلبيا من النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية .. بل إن أحد سكان مصر هو الذى قام بقتل الخليفة الرابع ..

وأيضا كان لهم دورهم الفعال فى الصراع بين الأمويين بقيادة « يزيد بن معاوية » و« عبد الله بن الزبير » .. على الخلافة .. فعبد الله كان من سكان الفسطاط وأبوه الصحابى العظيم الذى كان مرشحاً لقيادة جيش فتح مصر ..

بل اقترن اسم مصر بالصراع النهائى بين الأمويين والعباسيين ، فقد هرب إليها آخر خليفة .. وشهد مصرعه على أرضها ..

وهكذا ظل دور مصر الإيجابى داخل دائرة الصراع فى الدولة الإسلامية .. حتى قيام أسرة محمد على فى مواجهة الخلافة العثمانية .. حيث قاد إبراهيم باشا جيش مصر ليهدد عاصمة الخلافة العثمانية ذاتها ..

وكان من الطبيعى لشعب ـ هذا دوره ـ وهذه إيجابيته .. شعب رفض ـ بجميع طوائفه ـ أن يكون على الهامش .. فساهم بدور .. سواء بإرادته أو بغير إرادته ـ فى كل هذه الخلافات السلطوية الحادة .. كان من الطبيعى أن يتخذ مثل هذا الشعب أحيانا موقفا مع الجانب الخاسر .. وكان من الطبيعى أن يقع فريسة لاضطهاد من الجانب المنتصر .. والعكس صحيح .. ولعل هذا هو السبب الرئيسى فيما وقع على المصريين ـ بعد الفتح ـ من بعض الاضطهاد الذى كان يقع سواء للمسلمين وغير المسلمين ..

ولأن معظم الخلفاء ـ بعد عصر الخلفاء الراشدين ـ كانوا خلفاء دنيويين ، ابتعدوا عن روح الإسلام وحولوا الخلافة من خلافة بالاختيار الشعبى إلى خلافة وراثية عضوض .. وإذا أضفنا لهذا ما كان يتصف به بعض ولاة عصور الخلافة غير الراشدة .. من قسوة .. وجهل .. وبعد عن القيم الإسلامية .. ومبادىء الإسلام المتسامحة ، فقد كان هذا الاضطهاد يأخذ شكلا عنيفا .. يتسم بالغباء والطمع والدموية فى بعض الأحيان ..

ـ بعض المؤرخين العرب .. كتب عن هذه الاضطهادات .. على أساس أنها اضطهادات وقعت على العرب المهاجرين .. بل إن عبد الحكم كان يرى فيها اضطهادات وقعت على العنصر العربى الذى دخل مصر بعد الفتح .. نتيجة لاشتراكهم الفعلى فى الأحداث والفتن ..

ـ ولكن بعض المؤرخين المسيحيين أمثال « يوحنا النقيوس » .. و« ساويرس بن المقفع » و« منسى يوحنا » سجلوا حوادث الاضطهادات وكأنها وقعت فقط على أقباط مصر ..

ـ وأما الجبرتى من (القدامى) و(حسين مؤنس) من المحدثين .. فكانا يريان فيها اضطهادات وقعت على المصريين ـ بشكل عام ـ مسلمين وغير مسلمين ، كنتيجة طبيعية لدور أهل مصر الإيجابى .. فى تلك الصراعات السلطوية .. وسنروى الآن بعض مشاهد هذه الأحداث كما رواها المؤرخون الموضوعيون ..

أحداث ما بعد الفتح :

فى آخر عهد عثمان بن عفان .. كان ضمن الذين سكنوا مصر من العرب الفاتحين (عبد الله بن سبأ) وكان يسكن الفسطاط مع مجموعة من عرب اليمن الذين جاءوا مع جيش عمرو بن العاص .. وقد ساء هذه المجموعة أن يسيطر (بنو أمية) ممثلين فى عثمان ابن عفان على أمور المسلمين دون غيرهم من العرب .. وقد زاد نفورهم بعد أن ولى عثمان (عبد الله بن سعد) أمور صعيد مصر .. ثم أمور مصر كلها ، بعد رفض عمرو مشاركة عبد الله بن سعد له فى ولاية مصر ، ورغم أن الرجل ، عبد الله بن سعد ، بذل جهدا عظيما ليثبت أنه جدير بثقة الخليفة وقاد عملية كبرى على المغرب أنتصر فيها على الروم .. فإن ذلك لم يشفع له عند عرب مصر خاصة أنه كان (أخا لعثمان بن عفان فى الرضاعة) .

ويقول الدكتور المؤرخ حسين مؤنس : « إنه ربما كان من أسباب هذه الكراهية اجتهاده فى جمع المال والارتفاع بالخراج .. حتى جمع فوق ما كان يجمع عمرو بن العاص من أهل مصر .. ولذلك طالب أهل مصر عثمان بعزله .. فلما رأوا من عثمان إصرارا على بقائه ، تزعم عبد الله بن سبأ هذا .. ومحمد بن حذيفة ، عرب اليمن وبعثوا بحوالى ٦٠٠ من عرب المدينة حيث اشتركوا فى الفتنة التى انتهت بحصار منزل عثمان بن عفان وقتله .. » .

وتولى (محمد بن حذيفة) بعد ذلك أمور مصر .. من قبل على بن أبى طالب .. فتحايل عليه كل من معاوية وعمرو بن العاص حتى عزله على بن أبى طالب عن

مصر .. وولى مكانه سعد بن عبادة الأنصارى .. ولكن معاوية وعمرو استطاعا الإيقاع به عند على بن أبى طالب .. فولى مكانه محمد بن أبى بكر .. وفى النهاية رحل رجل من (الخوارج) اسمه عبد الرحمن بن ملجم كان يسكن الفسطاط .. ورأى أن يخلص المسلمين من هذه (الفتن) .. فقام وحده بالسفر إلى المدينة وطعن (على بن أبى طالب) .. وهكذا عادت الأمور الى بنى أمية تماما .. وعاد عمرو بن العاص إلى مصر .

وعندما مات معاوية ..

ظل عرب فسطاط مصر .. كارهين لاستئثار بنى أمية بالحكم .. وعندما نادى معاوية بابنه يزيد خليفة (بالوراثة) .. خارجا على مبادىء الإسلام فى تعيين الحاكم باختيار المسلمين ، تحرك عرب مصر ثائرين على هذا التعيين .. وانضموا مع عرب الحجاز والعراق .. مؤيدين (عبد الله بن الزبير) .. خاصة ان عبد الله هو ابن الزبير بن العوام الصحابى الجليل .. الذى لعب دورا حاسما فى فتح مصر .. وفى اقتحام حصن بابليون .. وكان له منزل فى الفسطاط .. ينزل فيه ابنه عبد الله كلما زار مصر .. وهكذا وقف عرب مصر إلى الجانب الخاسر .. الذى انتهى بمصرع عبد الله بن الزبير .. فى مكة .. مما جعل بنى أمية لا يستريحون لأهل مصر وعرب مصر الثائرين دائما على بنى أمية ..

كان عرب مصر يرون أن (بنى أمية) خرجوا على المبادىء الإسلامية .. واتخذوا من القوة والتحايل والخداع .. وسيلة لسيطرتهم على حكم المسلمين من دمشق .. بصرف النظر عن الحق .. والمبدأ الإسلامى ضاربين برأى الأمة الإسلامية عرض الحائط .

ولذلك .. فعندما تولى مروان بن الحكم الخلافة فى دمشق .. وجه عناية كبيرة وحذراً لأهل مصر .. وكان عبد الله بن الزبير قبل مصرعه .. قد ولى على مصر (من أنصاره الثائرين) صحابيا يدعى (عبد الرحمن بن عتبة الفهرى) .. وقد حاول (الفهرى) باستماتة - بمعاونة أهل مصر الثائرين - التصدى لجيش مروان الذى جاء لاستعادتها إلى حكم بنى أمية .. ولكنهم انهزموا ، لهذا دخل مروان بن الحكم الفسطاط عام ٦٨٥ ميلادية .. وبايعه أهلها .. إلا نفراً قليلاً تخلص منهم بالنفى والاضطهاد ..

ولكن عرب مصر لم ينسوا هذه الهزيمة .. فعندما تولى (مروان بن محمد) آخر الخلفاء الأمويين أمور الدولة الأموية من دمشق .. وكان على مصر وال يمنى مثلهم

هو حفص بن الوليد هبوا فى مواجهة هذا الخليفة عندما حاول تولية وال (شامى) على مصر (من قبل الأمويين) وهو حسان بن عتاهة فطردوه من مصر .. وأعادوا تثبيت (حفص بن الوليد) واليا من قبلهم على مصر .. رغم أنف الخليفة الأموى .. ولم يكتف عرب مصر بذلك ..

بل إنهم بدأوا يتصلون بدعاة العباسيين في مصر .. المرسلين من قبل (أبى مسلم الخراسانى وعبد الله بن أبى العباس) .. وأعلنوا عداءهم لمروان بن محمد .. الذى هاله هذا العصيان العلنى ، فبعث جيشا مكوناً من ٧٠٠٠ جندى لاخضاع ثوار أهل مصر .. وخاصة عرب الفسطاط .. وخاف (حفص بن الوليد) وطلب الأمان من مروان فتظاهر جيش مروان بذلك .. ثم قام بقتله مع زعماء الثائرين فى عام ٧٤٥ م .

ولكن عندما هزمت جيوش مروان بن محمد على أيدى قوات العباسيين فى الشام .. لم يجد سوى مصر .. يأوى اليها هربا من تنكيل سفاح العباسيين (عبد الله بن العباس) .. وقال فى طريقه إلى مصر قولته المشهورة « هى أكثر بلاد الأرض مالا وخيلا ورجالا » .

وبينما كان مروان بن محمد آخر خليفة أموى .. يفكر فى مكان يلجأ إليه فى مصر ، كان واليه على مصر يستعد لحماية مصر من اجتياح العباسيين .. ولأنه كان من خلال الحوادث والتجارب السابقة يشعر أن المصريين بشكل عام ، وعرب الفسطاط بشكل خاص ، ليسوا معه .. فقد قام بارتكاب عدة حماقات .. هى التى فسرها بعض المؤرخين فيما بعد بقسوة الولاة المسلمين ، (كل من وجهة نظره) فقام بمصادرة أموال الناس للصرف على الجند .. واستولى على ما استطاع من نحاس وحديد ليستخدم ذلك كله فى شئون الدفاع .. وهكذا تغيرت نفوس المصريين ضد بنى أمية ..

وعندما جاء آخر خليفة منهم إلى مصر .. بفلول جنده المنهارة تأكد تماما أن مصر من الإسكندرية إلى أسوان مع العباسيين ضده .. وأمضى الخليفة الأموى أصعب أيام حياته هاربا فى مستنقعات أهل بشمور .. وظل كذلك نحو شهرين فلما علم أن قائدى العباسيين (صالح بن على وأباعون) فى الطريق إلى مصر .. أمر هذا الخليفة الأموى المجنون بإحراق الفسطاط وتدمير جميع المراكب الراسية فى ترسانة الروضة .. ثم مضى جنده يخربون وينهبون فى أراضى وجهى بحرى وقبلى ، مما أثار عليه أهل هذه البلاد ، عربا ومسلمين وأقباطا .. لما لاقوه من اضطهاد .. وانتهى به تخبطه إلى أن يأمر بإلقاء القبض على البطريرك الأنبا ميخائيل لأنه رفض أن يؤدى إليه مالا يطيقه .. وانتهى الأمر بهذا الحاكم التعيس إلى القبض عليه وقتله فى

أبو صير (بمحافظة الجيزة حاليا) فى يوم ٧ يوليو من عام ٧٥٠م .. وهكذا تم دفن آخر خلفاء الدولة الأموية فى مصر ..

وتولى أمر البلاد العباسيون .. واستعان العباسيون بالفارسيين والأتراك كوزراء وقادة وجند .. ولم يعجب هذا أهل مصر .. الذين كانوا يميلون للعرب ولم تهدأ ثورات أهل مصر ضد الولاة العباسيين .. الذين اتخذوا عاصمتهم - بغداد - بعيدا عن مصر .. ولم يتوقف أهل مصر عن الثورة ضد فساد العباسيين خاصة انه كان كل همهم .. الجباية وجمع الخراج .. ولم تهدأ الحال فى مصر .. ولم تبتعد عن مجريات الأمور .. واشتركت فى الخلاف بين المأمون والأمين .. ووقفت مع الأخير .. مما جعل المأمون يأتى بنفسه لحسم الموقف فى مصر .. وتوالى على مصر ولاة ضعاف لم يكن يهمهم سوى جمع الخراج .. حتى استولى على مصر أحمد بن طولون .. وهو أحد مماليك المأمون .. ومن يومها حكم مصر الغرباء والمماليك .. من أمثال الطولونيين والإخشيديين .. والأيوبيين .. والعلويين من أفراد أسرة محمد على .. وكانت مصر - خلال هذه القرون السوداء - تعانى من الاضطهاد والفقر والغربة .. حاول فى نهايتها عرابى أن يسترد الهوية المصرية العربية الإسلامية الأصيلة .. ولكن الإنجليز أجهضوا هذه الصحوة القومية .. حتى كان الدور العظيم الذى قام به شيوخ الأزهر وقساوسة الكنيسة أيام سعد زغلول .. حيث استطاعت البلاد استعادة هويتها المصرية العربية الإسلامية .. وانتهت قرون مؤلمة من الاضطهاد المرير .. واستطاع فى النهاية أقباط مصر ومسلموها .. أن يناضلوا للحصول على الاستقلال .. وعلى صيغة الحياة السياسية والقومية .. التى تشكل (وحدة قومية مقدسة) فى وجه كل اضطهاد .. وهكذا استطاع الشعب المصرى منذ عام ١٩١٩ أن يعثر على هويته العريقة .. وأن يقف شعبها بكل طوائفه حتى وصل إلى استقلاله الكامل .. بعد نضال شباب الجامعة فى الحركة الفدائية التى قامت ضد الإنجليز فى القنال عام ١٩٥١ .. وكان ذلك فى عام ١٩٥٦ .. حيث انتهت آخر سيطرة فعلية للحكم الأجنبى فى مصر .

الأحداث بعيون منحازة :

كما نرى الأحداث هنا وقعت بسبب (إيجابية شعب مصر) ..

ودور بعض طليعته فى الفسطاط والإسكندرية فى الثورة ضد (فساد بعض الولا ة المسلمين) .. الخارجين على المبادىء الإسلامية .. بدليل .. أننا سنرى حتى خلال بعض الرواة المنحازين .. أن القسوة فى معاملة أهل مصر .. واضطهاد

توقفت تماما عندما جلس على كرسى الخلافة خليفة محترم للمبادىء الإسلامية .. فأعاد ـ بهذه المبادىء ـ الهدوء والاستقرار لمصر فى العهد الأموى الملىء بالفتن .. والثورات المضادة والاضطهادات .

فبعض المؤرخين المنحازين .. من أمثال يوحنا النقيوس وابن المقفع والشماس منسى .. يوحنا .. كان يروى أحداث هذه الاضطهادات .. بعيون غير مسئولة مدفوعة بالتعصب الضيق .. فالمؤرخ الأخير أعاد صياغة هذه الأحداث ورصدها .. بعد أن أزاح عنها الأسباب « السياسية والعرقية والقبلية » التى كانت تدور بين العرب والفرس إبان الحكم الإسلامى لمصر .. بطريقة تبدو وكأنها أحداث موجهة ضد « مسيحيى مصر فقط » .. وليس أهل مصر كلها مسلمين وغير مسلمين .. ففى كتابه (تاريخ الكنيسة القبطية) نقرأ :

عن واقعة عودة الروم للإسكندرية وإسراع عمرو بن العاص لاستعادتها من الروم ، يقول الكتاب : « وبعد الاستيلاء على الإسكندرية دمروا أسوار الإسكندرية وأشعلوا النيران فى معظم الكنائس ، وبينها كنيسة القديس مرقص حيث كانت بقايا جسم القديس مدفونة ..

ويؤخذ من رواية الأنبا ساويرس المؤرخ (ابن المقفع) ان بقايا القديس انقذت (بمعجزة إلهية) لانه بينما كانت النيران متأججة فى الكنيسة دخل اليها (البحارة) .. وفتشوا تابوت القديس ظانين أن فيه مالا ، ولما لم يجدوا أخذوا ثياب القديس من على جسده وتركوا عظامه .

ويلاحظ أن الكتاب لم يذكر جنسية البحارة (الرومان) الذين عادوا لغزو الإسكندرية من البحر .. فهم الذين دخلوا الكنيسة ولم يقم عمرو إلا بتدمير أسوار الإسكندرية لإعادة فتحها بعد هجوم الرومان من البحر .. ولكن القصة مسرودة وكأن المسلمين هم الذين أحرقوا كل شىء .. ودهموا المقدسات فى الكنائس .. ولكن رواية ابن المقفع ذاتها تكشف الحقيقة .. إذا أن الهجوم العربى لاستعادة الإسكندرية كان من البر وليس من البحر .. ولم يكن لعمرو بن العاص فى ذلك الوقت أسطول أو بحاره ليحارب من البحر .. وكان ممنوعاً من ركوب البحر .. لأسباب خاصة .. متعلقة بخوف الخليفة من اجتياز البحار فى ذلك الوقت .

ويقول نفس الكتاب (تاريخ الكنيسة القبطية) : « وفى عهد خلافة الوليد بن عبد الملك ولى ابن أخيه عبد الله على مصر ، وبدون ان يذكر الكتاب أى أسباب يقول : إن عبد الله هذا كان يهدم كنائس الأقباط ويعطل شعائرهم .. ويتلذذ بتعذيبهم

وهو يأكل على مائدته وأنه حول الكتابة فى الدواوين إلى العربية .. وكانت الدواوين تحت رئاسة انتناس .. فتم عزله ، واضطر الأقباط إلى تعلم العربية .. حتى تفوقوا على العرب .. خوفا من فقد وظائفهم » .

وفى عهد خلافة (سليمان بن عبد الملك) وولاية أسامة بن زيد على مصر يقول الكتاب (دون ذكر أى أسباب) : إنه تكرر فى عهده الهجوم على الأديرة .. وقتل ما بها من الرهبان .. وكان من محبته للمال يأمر الولاة بأن يتهموا الأقباط بما هم براء منه حتى يتمكنوا من إعدامهم .. وإحضار أموالهم .. بل أمرهم قائلاً : « سلمت اليكم أنفس الناس فتحصلوا على ما تقدرون عليه من أساقفة أو رهبان أو كنائس أو على كل الناس (أى من المسلمين أيضا) فاحملوا إلى القماش والمال والبهائم ، ولا تراعوا أحدا .. وفي أى موضع نزلتموه فاخربوه » . والكتاب هنا لا يشير إلى أى مصدر جاء بهذه الأخبار المروعة ..

وفى عهد عمر بن عبد العزيز نظرا لما اشتهر به هذا الخليفة من العدل .. فإن مؤلف الكتاب لم يجد مناصا من الاعتراف بعدالة عهده ، فيقول : « وعندما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رفع إليه المصريون شكواهم من (أسامة بن يزيد) هذا .. فأمر بعزله وبعث خلفا له « أيوب بن شرحبيل » وأمره أن يقبض على (أسامة) ويكبله بالحديد ، ويسير به مسمرا يديه ورجليه بأطواق من الخشب ويرسله إليه .. فمات أسامة فى الطريق .. أما أيوب بن شرحبيل فكان عدلا فأجرى الحق مجراه ، وأنسى المصريين ما كان من استبداد أسامة فألغى الضرائب على الرهبان ، وخفف الخراج عن أهالى البلاد فأحبوه وزادوا فى اعتباره » .

وكان على الجيش فى مصر (حيان بن شريح) فبلغ عمر بن عبد العزيز أنه يطالب الأقباط الذين أسلموا بالجزية .. فعظم عليه ذلك وكتب له : « أرى ياحيان أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تعالى قال : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » . فأجابه حيان أما بعد فإن الإسلام قد أضر الجزية ، أى أن دخول الناس فى الإسلام قد أضر بميزانية الدولة . فكتب إليه عمر « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك .. وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم على يده .. أى أنه كل ما يسعدنى كخليفة أن يدخل الناس فى الإسلام مهما سبب لى ذلك من شقاء بسبب قلة المال من الجزية ، فرفعت الجزية عمن أسلم .. ووزعت على إخوانهم الباقين على دينهم .. وكذلك كانت توزع جزية من يموت منهم على الأحياء .. ويلزمون بأدائها طوعا أو كرها » ..

حكاية ثلاثة خلفاء :

وهكذا مضى الكتاب ..

يأتى يزيد بن معاوية فيسىء لأقباط مصر .. ثم يأتى هشام بن عبد الملك فيحسن ، ثم يأتى يزيد بن عبد الملك فيسىء .. ثم يأتى عمر بن عبد العزيز فيحسن .. ويأتى الوليد بن يزيد فيسىء .. ثم يأتى هارون الرشيد فيحسن .. وذلك لأن كل خليفة من هؤلاء كان يبعث (لمصر) ولغير مصر واليا على شاكلته ومن نوعه وعلى كل .. حتى نحسم هذا (التذبذب) ونجلى حقيقة هذه الأحداث الغريبة .. التى سردت فى هذا الكتاب والتى قيل إنها موجهة لأقباط مصر .. سنقف أمام حكم ثلاثة خلفاء أمويين .. لنرى ما ذكره الكتاب عن أفعالهم بالأقباط ..

ثم .. لنرى ما فعله هؤلاء الحكام - وولاتهم الظلمة - بالمسلمين أيضا .. خارج مصر .. وكذلك لنرى مدى بعد هؤلاء الشاسع .. عن مبادىء الإسلام .. ومدى إدانة التاريخ الإسلامى لهم ..

هؤلاء الخلفاء الثلاثة هم يزيد بين معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ..

فمن المعروف أن خلافة يزيد بن معاوية لم تكن خلافة سعيدة ، لا على مسلمى مصر ولا على أقباط مصر .. ذلك لأن مصر كما سبق وقفت مع عبد الله بن الزبير عندما رأى أنه أحق بالخلافة .. لدرجة أنه بعث من قبله واليا على مصر .. يدعى عبد الرحمن الفهرى .. وأيده المصريون ضد والى يزيد .. فتربص بهم ..

ولكن إذا كنا نعرف أن خلافة يزيد لم تكن خلافة سعيدة لأهل مصر .. فهل كانت خلافته سعيدة للحجاز مثلا .. إذن فاسمعوا ما فعله يزيد بهذه المدينة المنورة .. التى تحتضن فى باطنها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ..

لقد هاجم جيش يزيد المدينة ، حين خلع أهلها بيعته ، وقاتل أهلها حتى هزمهم .. فى موقعة (الحرة) .. كان المفروض أن يكتفى بهذا .. لقد سلم له أهل المدينة ..

ولكن قائد جيش اليزيد (مسلم بن عقبة) أصدر أمره باستباحة المدينة ثلاثة أيام .. وقيل إنه قتل خلالها (أربعة آلاف مسلم) .. وأنه فضت فيها بكارة ألف بكر .. وكان ذلك بأمر من (اليزيد شخصيا) وكان نص الأمر : مع القوم ثلاثا ، فإن أجابوك ، وإلا فقاتلهم ، فإذا انتصرت فأبحها ثلاثا ، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس .. » ولم يكتف عقبة بهذا .. بل طالب أهل المدينة أن يبايعوا يزيدا على أنهم (عبيد) .. ويرفض الآلاف .. وتم قطع رءوس آلاف المسلمين الصامدين .. هكذا بكل

بساطة .. ومن حاكم مسلم .. ولكن هل اعتبره التاريخ الإسلامى حاكما مسلما .. لقد أدانه تاريخ الإسلام .. وقال إنه كان يحكم باسم الإسلام وليس بمبادئه ..

ونأتى للخليفة الثانى يزيد بن عبد الملك .. يقول عنه كتاب (تاريخ الكنيسة القبطية) إن هذا الخليفة ولى على مصر (بشر بن صفوان) ومع أن صفوان هذا انتهج مع الأقباط نهجا حسنا .. إلا أن يزيد بن عبد الملك أمره بأن يضع على الكنيسة والأساقفة الخراج الذى رفعه عنهم عمر بن عبد العزيز ، وزادت الضرائب فأصبحت الإقامة فى البلاد وبالا على أهلها ، فتركها منهم كثيرون لا سيما بعد أن شدد يزيد على الوالى بألا يقيم فى مصر إلا من كان على دين محمد - صلى الله عليه وسلم - وإلا فليخرج من مصر حتى افتقرت مديريات بأكملها .. ، وانتهز المغتصبون الفرصة وهدموا الكنائس .. ومحوا الصور فيها وحولوها إلى مساجد .. وتفننوا فى تعذيب الأقباط وسلب مالهم ..

ولكن من هو يزيد بن عبد الملك هذا فى التاريخ الإسلامى .. يقول (السيوطى) فى كتابه (تاريخ الخلفاء) : « لقد جاء هذا الخليفة فى أعقاب عمر بن عبد العزيز الذى ملأ الدنيا عدلا ، فإذا بيزيد يأتى من بعده لكى يملأها مغانى وشرابا ومجونا وخلاعة طوال أربعة أعوام .. ويقال إن هذا الخليفة الماجن ما إن تولى الحكم حتى أتى بأربعين شيخا من (فقهاء السلطة) فشهدوا له بأن (ما على الخليفة - أى خليفة - حساب ولا عذاب) .. !!

وبدأ هذا الحاكم الماجن خلافته بعشق جارية تدعى (سلامة) ثم انتهت حياته بعشق أخرى تدعى (حبابة) ..

ويروى المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » قصة وفاة يزيد هذا .. وهى قصة تثير قشعريرة أى مسلم .. بل أى إنسان .

« كانت حبابة هذه غاية فى الجمال .. وكانت واحدة من جواريه المحظوظات ، فقال يوما لحاشيته الفاسدة حوله : اشتهى أن أخلو بحبابة فى قصر مدة من الدهر ، لا يكون عندنا أحد ، ففعل ذلك ، وجمع إليه فى قصره ذلك حبابة وأخلاه من الناس ، وفرشه بأنواع من الفرش والبسط الهائلة . والنعم السابغة .. فبينما هو معها فى ذلك القصر على أسر حال وأنعم بال . وبين أيديهما عنب يأكلان منه ، إذ رماها بحبة عنب وهى تضحك فشرقت وماتت . فمكث أياما يقبلها ويرشفها وهى ميتة حتى أنتنت وجيفت فأمر بدفنها فلما دفنها قام أياما على قبرها هائما ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج بنعشه .. » .

فهل ينتظر من مثل هذا الحاكم الفاسد .. الذى خرج على كل مبادىء الإسلام أن يحسن لأهل مصر .. أو قبط مصر .. أو مسلمى مصر .. وهل يستطيع مؤلف الكتاب أن يحسبه ضمن حكام المسلمين ..

ونأتى للخليفة الثالث « الوليد بن يزيد » ..

ماذا قال عنه كتاب « تاريخ الكنائس » قال : إن هذا الخليفة ولى على مصر (حسان بن عتاهية) فزاد فى الضرائب وضايق الأهالى واضطهد المسيحيين وأمرهم أن يعتنقوا الإسلام .. فسقط منهم آلاف الشهداء ، وخشى كثيرون من الأساقفة على أنفسهم ، ففروا من كنائسهم للأديرة تاركين رعيتهم فريسة للذئاب ..

وبغض النظر عن (المبالغة) .. فى هذا الكلام ..

فمن هو الوليد بن يزيد هذا ؟

قال (الذهبى) عنه إنه اشتهر بالخمر والشذوذ .. وقد فاق والده (يزيدا) فسقا وفجورا واستهتارا بالمبادىء والأديان ، واشتهر عنه أنه كان يرشق (المصحف) بالسهام .. ولأنه كان شاعرا فلقد شاء له حظه العاثر أن يسجل عليه استهتاره بالقرآن الكريم .. فقد ذكر المسعودى فى (مروج الذهب) أن الوليد هذا قرأ ذات يوم فى القرآن الآية الكريمة : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد .. من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » .. فدعا بالمصحف فنصبه فى مواجهة قوسه وأقبل يرميه بسهمه منشدا :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب فرقنى الوليد

وأتوقف هنا قبل أن تفوح هذه الرائحة العفنة لهؤلاء الحكام بأكثر من هذا .. لنعيد النظر فى كل ما قرأناه عن هول أحداث الفتح .. وحكام ما بعد الفتح ، لنعيد النظر فيما ورد بكتاب « تاريخ الكنيسة القبطية » من خلال الحقائق التالية :

الحقيقة الأولى :

أن هذا الكتاب لم يذكر مرجعا واحدا يثبت من خلاله حقيقة أحداث الاضطهادات الرهيبة التى ذكرها .. وبما يؤكد أنها وقعت على غير المسلمين دون المسلمين .. فالمراجع تؤكد أن هذا الاضطهاد كان يشمل جميع المصريين .. وكان السبب فيه أن معظم حكام الأمويين والعباسيين اهتموا بالجباية والخراج .. وكانوا يضغطون على ولاتهم فى مصر .. مما اضطر هؤلاء الولاة إلى الضغط على أهالى مصر لرفع أرقام الجباية إلى الحاكم الأموى أو العباسى وكان هذا هو العامل الرئيسى وراء ٩٠٪ من هذه الاضطهادات المنافية لروح الإسلام ..

الثانية :

يحاول الكتاب ذكر مدى التزام هؤلاء الحكام بالمبادىء الإسلامية ، ومدى او بعدهم عنها .. ومدى انحرافهم عن اتباع نظرية الإسلام فى تعيين الحاكم (من الاختيار إلى الوراثة) وهكذا بدأت الأحداث وكأنها صادرة عن طغاة بالإسلام ومبادىء الإسلام .. وفى هذا بعد عن أبسط مبادىء الموضوعية .. فى سرد أحداث التاريخ ..

الثالثة :

التاريخ الإسلامى والفقه الإسلامى قد أدانا معظم عهود خلفاء بنى أمية يين والعثمانيين .. لدرجة أنهما أطلقا عليها عصور الخلافة الإسلامية .. وقد أوضحت المراجع الإسلامية (تاريخ الخلفاء للسيوطى - الكامل لابن البداية والنهاية لابن كثير ، مروج الذهب للمسعودى) ، مدى خروج هؤلاء على القيم الإسلامية ، ومدى فسادهم ، وكيف أنهم كانوا يحكمون - هم - العالم الإسلامى حكما سلطويا عفنا باسم الإسلام .. وكيف أنهم أساءوا .. اكثر مما أساءوا للمسلمين .. وليس من العدل أن نذكر أعمالهم السيئة لمضادة للأقباط أو المسلمين دون توضيح مواقفهم من المبادىء الإسلامية فى التاريخ الإسلامى ..

الرابعة :

الكتاب نفسه كان موضع انتقادات حادة من كبار المؤرخين المسيحيين ، وعلى رأسهم الأب « لويس سيخو اليسوعى » الذى وجه عدة انتقادات للكثير ائع والحقائق المسيحية ذاتها التى جاءت فى الكتاب قائلا عنها فى بحث نشر المشرق » إنها وقائع من نسج الخيال .. ومن هذه الانتقادات التى وجهها ، » لمؤلف كتاب « تاريخ الكنيسة القبطية » :

مؤلف الكتاب كان مدفوعا فى كتابه بعامل « التعصب القومى » .
ما كتبه بشأن تأسيس القديس مرقص الرسول .. للكراس السكندرى لا ند له إلا فى مخيلة مؤلف تاريخ الكنيسة القبطية .

أن قوله بسقوط « ليباروس » أسقف روما فى الهرطقة محض افتراء .
أن قصة « البابا حنا » التى أوردها الكتاب حديث خرافة .

فإذا كان ما جاء فى هذا الكتاب حتى بالنسبة لوقائع التاريخ المسيحى حديث خرافات ومحض افتراء ، ولا سند له إلا فى مخيلة المؤلف .. فماذا يمكن وصف ما جاء فيه عن التاريخ الإسلامى فى مصر .. على كل فنحن نكتفى بكلام الأب لويس اليسوعى .. « بأن ما كتبه مؤلف الكتاب كان بدافع التعصب القومى » ..

المؤرخون المحايدون :

ونحن لا نستبعد تسرع المؤلف فى تأليف هذا الكتاب .. وعدم نضجه حيث إنه توفى عن ٣٩ عاما سنة ١٩٣٠ .. ولعله وقع ضحية كتب المستشرقين .. التى لم يكن لها من هدف سوى تدمير « الوحدة الوطنية » بين مسلمى مصر وأقباطها التى تجلت فى أبهى صورها فى ثورة ١٩١٩ .. ومازالت حتى اليوم .. رغم جنوح بعض المتطرفين من الجانبين ..

أما المؤرخون المحايدون من أمثال الدكتور حسين مؤنس فهو يلخص فى سلاسة ما حدث فى مصر من تغيير لغوى ودينى بعد الفتح .. ويصف هذه العملية بأنها مضت فى يسر ونتجت عن قرار عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين .. مما دفع كثيرا من أهل مصر إلى تعلمها للبقاء فى وظائفهم ، ثم قرار المعتصم .. بإسقاط سيطرة العرب على الدواوين الحكومية .. لأن الدولة العباسية كانت تدار بغير العرب من الفرس وغيرهم من الترك والأعاجم .. وبهذا أصبح عرب مصر شأنهم شأن الأقباط سواء بسواء .. وزالت الحواجز بين الجانبين .. مما دفع الكثيرين لدخول الإسلام عن طريق الاحتكاك اليومى .. وليس بالإجبار ..

ويضيف الدكتور أن هذه العملية ـ التعريب والأسلمة ـ تمت فى مصر بدون إرهاق أو ضغط ، بل لم تتم نتيجة لسياسة خاصة للدولة الإسلامية ، فالدولة الإسلامية لم يكن لها سياسة خاصة أو معينة لنشر الإسلام أو اللغة العربية .. لأن مبادىء الإسلام ترفض إكراه أحد على دخول الإسلام .. ولذلك فقد اختار الإسلام من اختاره من المصريين طائعا مختارا وعن اقتناع ، وتعلم العربية من تعلمها من تلقاء نفسه بدافع من مصالحه التى أفرزتها الأوضاع الجديدة .. بل إن المتتبع لأخبار مصر خلال القرن الأول الذى تلا الفتح ، يلاحظ وكأنما كانت سياسة الحكام دافعة إلى إحياء المسيحية المصرية ، فقد قطع العرب صلة مصر بالدولة البيزنطية تماما ، فتنفس « المونوفيزيون » الذين يؤمنون بـ (الطبيعة الواحدة للمسيح) الصعداء .. وأقبلوا

يرممون ما دمره البيزنطيون من أمور عقيدتهم .. وكنائسها وتركهم العرب المسلمون ينظمون شئونهم الدينية كيف شاءوا ، ينتخبون البطريك الذى يريدون .. ويعيدون بناء الكنائس المتهدمة بل يبنون كنائس جديدة ويزيلون الأسماء الاغريقية عن قراهم ليحلوا محلها أسماء قبطية .. دون أى اعتراض من المسلمين بدليل بقاء بعض الأسماء القبطية على معالمها التاريخية حتى اليوم ..

ومعظم الكنائس القبطية الكبرى الباقية إلى الآن إنما بنيت أيام الأمويين ـ عكس ما كتب مؤلف تاريخ الكنائس القبطية ـ مثل كنيسة القديس مرقص بالإسكندرية ومارجرجس والكنيسة الحمراء وما إليها .. بل كان كبار الفقهاء المسلمين من أمثال الليث ابن سعد ، وعبد الله بن لهيعة يرضون عن ذلك ويقولون إنه « من عمارة البلاد » ..

ولا نكاد نرى واليا متشددا مع الأقباط إلا أعقبه وال متسامح رحب الصدر يعيد أمر الأقباط إلى ما كان عليه ، مثلما حدث خلال خلافة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك وهارون الرشيد ، فعاش من أراد الاحتفاظ بدينه فى مصر فى سلام حتى نهاية العصر الفاطمى .. فإن كان أصابهم بعد ذلك حيف فقد أصاب المسلمين حيف مثله ، وربما ضعفه ، وبشكل عام كأن الرعايا جميعا مع حكامهم فى بلاء منذ القرن السادس الهجرى مسلمين وغير مسلمين (إلى أن حصلت البلاد على استقلالها) ..

هذا هو ما تقرأه فى تاريخ الفتح الإسلامى من المؤرخين الموضوعيين .. أما المتعصبون من الجانبين والمتحمسون من أمثال مؤلف الكتاب السابق .. فأنت عندما تقرأ كتابه وتحصي عدد من يذبح ويموت فى كل عهد .. وعدد ما يدمر من كنائس على يد كل حاكم أموى وعباسى .. فلا تملك سوى أن ترفع عينيك عن السطور .. إلى آلاف الكنائس التى تراها حولك .. لتعرف أن ما قرأته منذ قليل .. ليس سوى أحداث تدمير لم تقع إلا فى خيال المؤلف ..

ذلك أن :

الإسلام يدين أى خدش يصيب أى مواطن غير مسلم يعيش فى بلد إسلامى .. هذا هو المبدأ الإسلامى فى معاملة غير المسلمين ، فإذا كان قد حدث بعض هذه الخدوش .. أو الجروح .. فان كتب التاريخ الإسلامى تدينها بشدة .. قبل كتب التاريخ المسيحى ..

ولكن نحمد الله .. أن الواقع حولنا - الآن - يشهد بغير ذلك .. بل إن نظرة لما يدور حولنا فى العالم .. بين كاثوليكيى .. ايرلندة وبروتستانت انجلترا .. بين السيخ والبوذيين فى الهند .. بين البيض والسود في جنوب افريقيا .. لتشير إلى أن الفتح الإسلامى ، وفى مصر بالذات ، قد نجح فى أن يخلق أول (وحدة وطنية) فى العالم الحديث والمعاصر داخل بلد متعدد الأديان .. متعدد الألوان .. متعدد العروق والأجناس ..

وإذا كان للإسلام أن يفخر بسماحته فى كل أنحاء الدنيا .. فإنه يفخر بهذه الوحدة العريقة المقدسة بين الأقباط والمسلمين فى مصر .. وهى وحدة يحسدها علينا كل شعوب العالم المتحضرة ، ومن لا يصدق فليذهب ويسمع بنفسه ذلك من أفواه الأوربيين .. الذين يعبرون عن دهشتهم لكل من سافر إليهم من المصريين .. عندما يقارنونه بما يحدث بين الطوائف حتى فى بلادهم (المتحضرة) .

فهنيئا لمصر بإسلامها المتسامح .. ومسيحيتها العريقة ..

وهنيئا للإسلام .. بمصره الموحدة وبشعبها المتمدين ..

وهنيئا لأقباط مصر ومسلميها بمبادئهم .. ومقدساتهم .. التى قهرت غول التعصب فى الأعماق .. وسلام على محمد وعيسى اللذين ظللا مصر بهذه الخيمة الوارفة من الحب والسلام ..

فطوبى .. للمسيح .. الذى قال : سلاما أترك لكم ..

وسلام من مصر إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى قال : الأنبياء إخوة .. أمهاتهم شتى ودينهم واحد ..

* * *

« المصــــادر »

فتوح مصر وأخبارها ـ طبعة مدينة (ليون بفرنسا) عام ١٩٣٠م
أبى القاسم بن عبد
الحكم القرشى المصرى

تاريخ الكنيسة القبطية ـ طبعة ثانية (مطبعة دِار العالم العربى ١٩٧٩م
الشماس منسى يوحنا

تاريخ الحضارة المصرية ـ طبعة المؤسسة المصرية للتأليف والطباعة والنشر
د. حسين مؤنس وآخرين

صور من تاريخ القبط ـ طبعة جمعية مارمينا العجايبى ١٩٥٠م
بانوب حبش وآخرين

المواعظ والاعتبار فى الخطط والآثار ـ طبعة بولاق ١٢٧٠ فى مجلدين
المقريزى

مدونة حنا أسقف نقيوس ـ طبعة باريس ١٨٨٣م
حنا النقيوسى

فتوح البلدان ـ طبعة القاهرة ١٩٥٩م
البلازرى

تاريخ الأمم والملوك ـ طبعة المطبعة الحسينية القاهرة جـ ١
الطبرى

البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأخبار ـ القاهرة ١٣٥٦م
المقريزى

إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ طبعة زيادة القاهرة ١٩٤٠م
المقريزى

فتح العرب لمصر (لألفريد بيكر ـ طبعة القاهرة ١٩٣٣)
ترجمة محمد فريد أبو حديد

(محتويات الكتاب)

رقم الايداع

١٩٨٨ / ٨٢٢٥

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر

الناشر

المكتب العربي للمعارف

١٦٥ ش النزهة / مصر الجديدة - ت : ٢٤٣٩٦٦٧٩

تصميم الغلاف :

الفنان / ابراهيم سمرة

مكتب متف للنشر والخدمات الإعلامية

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر